العلماء والشعر

للعلماء شعر، ولم يمنعهم العلم وحفظ المتون وشرح النصوص من أن يبدعوا القافية، ويرسلوا الحرف الجميل لمقاصد عالية من التربية والتهذيب والتوجيه، ومن أشهر من مرّ معنا في تاريخ العلماء عبد الله بن المبارك، فقد كان شاعراً لبيباً حكيماً زاهداً مجاهداً منفقاً محدثاً، حتى يقول الذهبي: كان أصحابه يجتمعون في غيابه ويقولون: تعالوا نَعُد مناقب عبد الله بن المبارك. وهو من أهل خراسان من مرو، زار الفضيل بن عياض عابد الحرمين في الحرم، فسمع بداعي الجهاد في سبيل الله جهة عمورية، فخرج من الحرم، وقال:

بُغْضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللهِ أَخْرَجَنِي ... وبَيْعُ نَفْسِي بِما لَيسَتْ لَهُ ثمَنا

إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْقَى لِيَعْدِلَهُ ... مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلا وَاللهِ مَا اتَّزَنَا

وذهب إلى خراسان يعلم الجيش ويفتيهم في الليل، يقول أحد أصحابه: لمحت ابن المبارك ليلة ونحن نجاهد الروم في ليلة ماطرة فتركنا حتى نمنا فقام يصلي ويقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] حتى أصبح وهو يبكي. ولما قام جاهد، فأرسل له الفضيل رسالة من الحرمين: إنك تأخرت علينا وإنك تركت الصلاة بالحرم بمئة ألف صلاة والإفتاء والتعليم، فرد عليه ابن المبارك:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ

رِوحُ الْبُخُورِ لَكُم وَنَحْنُ بُخُورُنَا ... رَهجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ

فمثل هذا الشعر الماتع والشعر القوي جمعه مع الحديث ومع الفقه والفتيا.

وقد لا يُمدح الشاعر كثيراً إذا تفرَّد في حياته؛ لأنه تخصص للشعر، لكن أن يأتي عالم ويجمع مع الفقه والحديث والتفسير شعراً وأدباً جميلاً، فهذا يدل على النبوغ، ويدل على الريادة.

فهذا ابن المبارك يوصي طلابه وإخوانه:

إِذَا صَحِبْتَ قَوْماً أَهْلَ وِدٍّ ... فَكُنْ لَهُمُ كَذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ

وَلا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ ... فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِلا رَفِيقِ

يقول: لا تبحث عن العيوب، وتكون كشافاً لعثرات الناس، بل اجبر الخاطر واستر، واغفر الزلة وتغافل؛ فإنك سوف تظفر بإخوان إذا اقبلتهم على ما فيهم. وكان يقول:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدهر فَاصْحَبْ مَاجِداً ذا عَفَافٍ وَحَيَاءٍ وَكَرَمْ
قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: لا. إنْ قُلْتَ: لا وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ

فالأخ الموافق والصاحب الموافق دائماً يُسعدك، ولا يُحِبُّ الخلاف، تقول: ننزل في هذا المكان؟! يقول: حبّاً وكرامةً. تقول: ما رأيكم أن ننام في هذا المكان؟ فيقول: أحسنت، رأي سديد؛ لأنها أمور تقبل الاجتهاد وليست أمور عقائد يكون الخلاف فيها كفراً، فما دامت أموراً اجتهادية فاقبل ولا تخالف؛ لأن بعض الناس يحب الخلاف، يقول الشريف الرضي:

مَشْغُوفَةٍ بِالْخِلافِ لَوْ أَقُولُ لَهَا: يَوْمَ الْغَدِيرِ. لَقَالَتْ: لَيْلَةَ الْغَارِ

فهو حب الخلاف فقط وحب الاعتراض، ومن أبيات ابن المبارك التي يقولها:

هَبَّتِ الرِّيحُ مِنَ الشَّرْ قِ فَجَاءَتْنِي بِرِيحِكْ
كَيْفَ أَنْسَاكَ وَرُوحِي صُنِعَتْ مِنْ جِنْسِ رُوحِكْ

إلى آخر تلك القائمة الجميلة من أبياته.

وأما العالم الآخر الذي أتى بعده وكاد يدركه، فهو الإمام الشافعي محمد بن إدريس، وهو- على الإطلاق- من أذكى العلماء إن لم يكن أذكاهم، بعد الصحابة ﷺ. وأنبغهم وأبلغهم وأفصحهم غفر الله له وجمعنا الله به في الفردوس الأعلى.

يقول في قصيدة:

أَمْطِرِي لُؤْلُؤاً سَمَاءَ سَرَنْدِيبَ[1] وَفِيضِي آبَارَ تَكْرُومَ تِبْرَا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْزاً وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا
هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

معنى الأبيات: يا سماء سرنديب، أمطري ما شئت فأنا لا أريد الجواهر والدرر، وفيضي آبار تكرور تبرًا، أي: فيضي ما شئت من هذا الذهب، لا أريده. وأنا يكفيني رغيف وقبر إذا مت أُدْفَن فيه، فهمتي عالية مثل همة الملوك، مثل همة الأسود ترى المذلة كفراً، هذه فلسفته في الحياة، وهو كاد أن يكون من أشعر الشعراء، لكنه توجه إلى العلم والتفسير والفقه والحديث، حتى يقول:

وَلَوْلا الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

يقصد: لبيد بن ربيعة الشاعر المشهور من بني عامر بن صعصعة، الذي وفد وافدهم على الرسول فمدح الرسول ﷺ، وقالوا: أنت خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا وسيدنا. فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بِبَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَدْرِجَنَّكُمُ الشيطان».

فلبيد هذا من أشعر الشعراء على كل حال، وقومه بنو عامر بن صعصعة وفدوا على النعمان بن المنذر، وكان مستشارَ النعمان بن المنذر الربيعةُ بن زياد العبسي، وكانت بين عبس وبين بني عامر بن صعصعة أزمة وسوء تفاهم وعداوة، فأوغر الربيعة العبسي صدر النعمان بن المنذر على بني عامر، وقال: كل القبائل استقبلهم إلا قبيلة بني عامر؛ لأنهم ينالونك ويؤذونك. وهذا الجليس السوء أوغر صدره، فأتت القبائل فقال النعمان للوفود: أدخلوهم. فدخلوا إلا وفد عامر بن صعصعة قال: احجبوهم؛ لأنه أوغر صدره مستشاره الوزير العبسي الربيعة بن زياد، فرجعوا إلى رحالهم مكسوفي الحال وهو معهم غلاماً ما زال صغيراً، أعني

(١) جزيرة سرنديب التي يستخرج منها الأحجار الكريمة والمجوهرات والدر.

لبيد بن ربيعة، فقالوا: رجعنا من عند الملك وطردنا. فقال: أدخلوني أنا غداً عليه. ثم بدأ يرتجز، قالوا: نحن عجزنا وأنت تقدر؟! قال: أدخلوني غداً عليه، اتركوا الأمر لي. قال سيدهم: إن كان نام فليس بصاحبنا - لأن الحر إذا اهتم بأمر لم ينم بليل - وإن كان يترمض، كما تترمض الحية على الرمضاء، فاعرفوا أنه صاحبنا يستطيع أن يدخل. فلمحوه بالليل فإذا هو يتقلب، ينام قليلاً على اليمنى ثم يميل على الجهة اليسرى، فأخبروا سيدهم فقال: هو صاحبنا. فطيّبوه وألبسوه لباساً أبيض وعمموه ومشى معهم في الوفد، وقال: فقط اتركوني على البساط. ثم أخذ يتسلل بين الناس، حتى وقف قبل النعمان، قال النعمان: من أنت؟ قال -وفي أولها-:

أَكُلَّ يَوْمٍ لِمَّتِي مُقَزَّعَهْ ... إِنَّ بُعَيْدَ الضِّيقِ يَأْتِيكَ السَّعَهْ

نَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَهْ ... وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَهْ

الضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَهْ ... وَالْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدَعْدَعَهْ

الجفنة المدعدعة: الجفنة الكبيرة عليها الثريد واللحم والبر.

وقال الأصمعي: الخيضعةُ: الجلبةُ، إذا اشتدت المعركة وازدحمت الصفوف، أي: نضرب بالسيوف. ثم قال هجاءً مراً في الربيعة بن زياد وسبه وكَرَّهَ النعمان فيه، فقال النعمان للربيعة بن زياد: اخرج. قال: افترى عليَّ. قال: قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً، يعني قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقاً وَإِنْ كَذِبَاً ... فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلا

فعلا نجم لبيد في تلك المرحلة وهو شاعر -بلا شك- مجيد، حتى دخل الإسلام وأسلم، ثم تاب من قول الشعر ونذر نذراً إن قال بيتاً أن يُعتق رقبة، حتى إنه في سكرات الموت قال أربعة أبيات فأمر أن تُعتَق أربع رقاب، وهو الذي يقول:

الْحَمْدُ للهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلامِ سِرْبَالا

أما شعر الشافعي فكان أكثره في النصائح وفي التوجيه، وهو الذي يقول لأحمد بن حنبل:

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ بِانْفِرَادِ ... وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي ... فَلا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ

وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي ... وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

ومن هذه الأبيات الجميلة الخفيفة كثير.

وهو يفلسف الكرم، فيقول: الكريم تُغطى عيوبه. ولذلك فإن السخي الجواد يُسامحه الناس بزلاته:

يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلّ عَيْبٍ ... وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

وهو من قصيدة طويلة يقول فيها:

أَمَا وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ... وَلا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ... وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

يُغَطَّى بِالسَّمَاحَةِ كُلُّ عَيْبٍ ... وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

حتى يذكر الجاحظ وغيره من الأدباء أن السخي تتحول ذنوبه بين الناس حسنات. فلكرمه وجوده على الناس وسخائه إذا أكثر من الكلام قالوا: سبحان الذي أعطاه الفصاحة! وإذا سكت وكان عَيِيّاً قالوا: سبحان الله! كيف أعطاه الله

الحكمة والصمت. وإذا لبس جديداً، قالوا: سبحان الله! يحب أن يرى أثر نعمة ربه عليه. وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله! حتى اللباس تواضع فيه. وإذا كان عجولاً قالوا: سبحان الله! جادّ مثل السيف بتار. وإذا كان بطيئاً قالوا: كالجمل راسخاً.

أما البخيل فيحولون محاسنه إلى خسائر، فإذا كان صموتاً، قالوا: سبحان الله! أصابه الله بالعي، الله عز وجل خذله حتى في الكلام فلا يتكلم. وإذا تكلم قالوا: كلامه هذر بلا فائدة. وإذا لبس جديداً، قالوا: أحشفاً وسوء كيلة؟ وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله ابْتُلي بمصيبتين: مصيبة البخل، ومصيبة هذه البهذلة وهذه الثياب الممزقة. وإذا كان عجولاً، قالوا: سبحان الله! طائش ما أخف عقله! وإذا كان ثقيلاً، قالوا: سبحان الله! ما أبرد أعصاب هذا الرجل وأثقل دمه!

وعند الترمذي: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس».

وممن يُعرف من الشعراء المتأخرين، بل هو عالم شاعر واستحسنت شعره وتابعت كثيراً من قصائده، ابن القيم -تلميذ ابن تيمية- له أبيات خاصة الميمية، يقول فيها:

أَمَا والَّذي شَقَّ الْقُلُوبَ وَأَوْ ... جَدَ الْمَحَبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لا تَتَصَرَّمُ

وَحَمَّلَهَا جُهْدَ الْمُحِبِّ وَإِنَّهَا ... لَتَعْجَزُ عَنْ حَمْلِ الْقَبِيصِ وَيَعْلَمُ

لأَنْتُمْ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ وَقُرْبِهَا ... أَحِبَّتُنَا إِنْ غِبْتُمُ أو حَضَرْتُمُ

سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ ... مَحَبَّةَ صَبٍّ حُبُّهُ لَيْسَ يُكْتَمُ

وَكُنْتُ إِذَا مَا اشْتَدَّ بِي الْحُبُّ وَالْجَوَى ... وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَفَصَّمُ

أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالتَّلاقِي وَقُرْبِهِ ... وَأُوهِمُهَا لَكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ

وهذا من أجمل ما يقوله شاعر.

وشعر العلماء درجات، فبعضهم يجيد إلى الدرجات الأولى، وبعضهم يتوسط، وبعضهم يضعف، ومنهم ابن الوردي المحدث الذي يقول:

تَسَتَّرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلّ جَنَاحِهِ ... فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلِ الأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ ... وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

والأُرَّجَانِي شاعر، وَالأُرَّجَان خففها المتنبي لما قال: أُرَجَان. لما ذهب ومر بالشعب وقال:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي الْمَغَانِي ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ واللِّسَانِ

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانُ لَسَارَ كَالأُرَجَانِ

والأُرَّجَانِي عالم محدث كبير، يقول من قصيدة جليلة:

أَعَيْنَيَّ كُفَّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ ... مِنَ الظُّلْمِ سَعْيِ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدِ

يقول لعينيه: أنتما اثنتان؛ فكفّا عن قلبي؛ لأنه واحد فكيف تجتمعان على قلبي تقتلانه؟ هذا من جميل ما يقول العلماء في أشعارهم.

ومن الشعراء ابن حزم الظاهري، كان يقول الشعر الجميل، حتى إنه يقول:

إِنِّي لَشَمْسٌ فِي السَّمَاءِ مُضِيئَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِيَ الْغَرْبُ

لأنه من الأندلس، يقول: أنا شمس، لكن مشكلتي أنني ما جئت من الشرق، بل جئت من الغرب. وقد ذهب هو وابن عبد البر المحدث فرأيا منظراً جميلاً، فقال ابن عبد البر: لا تغتر- يا ابن حزم- بكل ما ظهر من الجمال؛ فإنه قد يكون تحته أمر مخبوء ليس بجميل. فقال:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّـي ظَـاهِـرِيٌّ وَأَنَّـنِـي ... عَلَى مَا بَدَا حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

يقـول: أنا أشغـل بالظاهـر؛ لأنه يأخذ من ظاهر النصـ، فكل جمال ظاهري يقول: الأصل فيه جميل؛ لأن مذهبي الظاهر، فأتعامل بالظاهر.

ودخلـوا علـى ابن تيميـة، وهو في الحمّى مريض، قالوا: مـاذا تشتكي يا أبا العباس؟ قال:

تَـمُـوتُ الـنُّـفُـوسُ بِـأَوْصَـابِـهَـا ... وَلَـمْ يَـدْرِ عُـوَّادُهَـا مَـا بِهَـا

وَمَـا أَنْـصَـفَـتْ مُـهْـجَـةٌ تَشْتَكِي ... أَذَاهَـا إِلَـى غَـيْـرِ أَحْـبَـابِـهَـا

وهذا مثل قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ- إِذَا أَرْضَاكُمُ- أَلَمُ

ويُنشدون في هذا المعنى قول القائل:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... وَتَفْعَلُه فَأُحْسِنُ مِنْكَ ذَاكَا

استشهـد به بعض المحدثين على قصـة رسول الهدى ﷺ الـذي رواه ابن ماجـة وذكره صاحـب المنتقى جد ابن تيمية في (منتقى الأخبـار) «أَنَّهُ ﷺ أَتَى يَنْحَرُ النُّوقَ فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أَيَّتُهَا يَنْحَرُ أَوَّلًا». كل ناقة تقدم صدرها قبل الأخرى أيتها ينحر أولًا.

obeikandl.com

الرجاء

الرجاء في رحمته ﷻ هو سلم العبودية وهو الحبل الممدود بينك وبين رب العباد ﷻ، وإذا لم ترجه ﷻ فمن ترجو؟ فإنه لا يحقق مطالبك ولا يسهل الصعوبات ولا يفك الأزمات إلا هو وحده ﷻ، وقد التجأ كثير من الأولياء والعلماء والشعراء والأدباء في تباريح تنبعث من قلوبهم، الزمخشري أتى إلى البيت وصلى ركعتين وقال - وقد جاور بيت الله ﷻ -:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهُ ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

وعُلِـمَ بهذا أن الله عز وجل يُدعى في كل طلب ويؤمل، وبحسب ظنك بربك يحقق لـك ما ظننت، يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ». فمن ظن بأن يفرج الكرب ويحـل الأزمـات ويكشف الملمات حقق الله عز وجل ظنه، ومن ظـن بالله السوء فعليه دائرة السوء، ولذلك يقول السهيل الأندلسي:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْـتَ الْمُعَـدُّ لِكُـلِّ مَـا يُتَـوَقَّـعُ

فالعـدة والذخر عند عقلاء العالم هو الله وحـده عز وجل، ولذلك التجؤوا له في الشدائد، حتى قلت في أبيات:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلَّ صَيِّبُ

في قصيدة اسمها العظمة وأسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناتي؛ لأن الله يحب المدح.

الأسـود بن سريع شاعر أتى إلـى الرسول ﷺ فقال: «**يَا رَسُـولَ اللهِ، نَظَمْتُ قَصِيـدَةً مَدْحـاً فِـي رَبِّـي. قَالَ ﷺ: أَمَـا إِنَّ رَبَّكَ يُحِـبُّ الْمَـدْحَ**». ولذلك يقول في صحيـح مسلـم: «**وَلا أَحَدَ أَحَـبَّ إِلَيْـهِ الْمَدْحُ مِـنَ اللهِ**». ولذلك مـدح نفسه، حتى حسان رضي الله عنه يقول لقريش الجاهلة التي تحارب رسول الله ﷺ:

زَعَمَتْ سَخِيلَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَلِّبُ الْغَلَّابِ

قالوا فيما يُروى عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ شَكَرَ بَيْتَكَ يَا حَسَّانُ**». فمن هذا المنطلق قلت:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلَّ صَيِّبُ ... وَمَا تَابَ - يَا مَنْ يَقْبَلُ التَّوبَ - مُذْنِبُ

لَكَ الْحَمْدُ مَا هَاجَ الْغَرَامُ وَمَا هَمَا ... الْغَمَامُ وَمَا غَنَّى الْحَمَامُ الْمُطَرِّبُ

فَوَاللهِ لَوْ صُغْنَا مِنَ الدَّمْعِ مُقْلَةً ... أَحَادِيثَ حُبٍّ فِي عُلاكَ تُرَتَّبُ

وَسِرْنَا عَلَى الأَجْفَانِ تُشْوَى وُجُوهُنَا ... عَلَى النَّارِ نُشْوَى أَوْ عَلَى الْجَمْرِ نُسْحَبُ

لَمَا بَلَغُوا مَا تَسْتَحِقُّ وَقَصَّرُوا ... وَلَوْ حَاوَلُوا فِيمَا أَرَدْتَ وَرَتَّبُوا

ويقول أحدهم:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّوَاكِبُ ... وَمِنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمَّلُ خَائِبُ

وَفِيكَ وَإِلاَّ فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ ... وَعَنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فالرجاء أن ترجو الله ﷻ أن يُحقق لك ما أردت، فتوبتك لا تحصل إلا بتوفيق من الله، ورزقك لا يتعين ولا يتحقق لك إلا بتسهيل من الله، ونجاحك لا يتحقق، ولن يكون إلا إذا فتحت الطريق مع الله ﷻ، حتى إن بعض الشعراء يقول:

وَإِنِّي لأَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

أي: كأن الأمور مكشوفة أمامي من حسن الظن به ﷻ حتى المؤمنون يقولون: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فهم سلموا له ﷻ فقالوا: صدق الله، بأن الأحزاب سوف يأتون إلينا، وسوف تضيق بنا الضوائق، ولكن سوف يفرجها الله ﷻ، وسوف يأتي النصر والفتح وصدق الله ورسوله. وأما المنافقون وأهل الشك والريبة والمرض، فقالوا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. تبت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا.

وهنا إذا علمت ذلك فعليك أن تتجه إليه وحده ﷻ، يقول أبو يزيد البسطامي: عِشت مع الناس أربعين سنة فوجدتهم أمواتاً غير أحياء وما يشعرون أيان يُبعثون، فكبَّرت عليهم أربع تكبيرات ونفضت يدي منهم، وجدتهم لا يقطعون ولا يصلون ولا يميتون ولا يحيون، ولا يُقَرِّبُون ولا يُبَعِّدُون، ولا يرفعون ولا يُعِزُّون ولا يُذِلُّون ولا ينفعون ولا يضرون. هذه هي حقيقة الناس فالنافع الضار والمحيي المعز هو الله وحده ﷻ، ولذلك يقول:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذلك يقول ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**». إذا تركت دعاء الله غضب عليك، وإذا أكثرت من دعاء الله والإلحاح عليه أحبك الله وقرَّبك وأعطاك، حتى في الترمذي يقول: «**يَسْأَلُ أَحَدُكُمْ حَاجَتَهُ عَلَيْهِ، وَحَتَّى مِلْحَ الطَّعَامِ**». حتى إن ابن رجب ذكر أن في التوراة: اسألوه حتى عجين دوابكم، وحتى ملح طعامكم، وحتى يصلح شسع النعل. كل الأمور لا يصلحها ولا يهيئها إلا الله ﷻ ولذلك هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ويقولون: إن معاذ الرازي صعد المنبر يريد أن ينصح الناس:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

ثم قال: عليكم بالأعمال الصالحة. قال الناس: فإن لم تكن أعماله صالحة؟ قال: حسنات مُكَفِّرَة. قالوا: فإن لم تكن حسنات؟. قال: مصائب تأتيكم. قالوا: فإن لم تكن مصائب تكفِّر ذُنُوبنا؟. قال: شفاعة سيد الخلق ﷺ. قالوا: فإن لم تكن شفاعة؟. قال: رحمة أرحم الراحمين. فضج الناس بالبكاء.

وله كلمات يقول فيها: إن الله لما أرسل موسى وهارون -عليهما السلام- إلى فرعون قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. قال: سبحانك - يا ربي - هذا فعلك مع من يقول: أنا ربكم الأعلى. فكيف بفعلك مع من يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى؟! فنحن نرجوك أن ترحمنا وأن ترفق بنا؛ لأننا نحن نقول في سجودنا: سبحان ربي الأعلى. وهذا من أحسن الكلمات.

فالرجاء يسوق إلى رحمته ﷻ، فإذا خفّته ورجوته وأحببته كنت مستخدمًا، كان عندك سوطٌ وكان عندك قائدٌ يقود وسائق يسوق، فالسائق الذي يسوق هو الخوف والذي يقودك الرجاء، والمحبة الدابة وقيل: السوط الخوف، والقائد هو الرجاء والسائق الحب.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ

إِذَا تَشَكَّتْ كَلالَ السَّيْرِ أَسْعَفَهَا ... شَوْقُ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

فهو الرجاء برحمته ﷻ، يقول بعض السلف: سيروا على رجاء رحمة الله ﷻ. قال أحد طُلاب هذا العالم: كيف نسير، وقد ذهب القوم على خيول مُضَمَّرَةٍ وبقينا نحن على حَمِيرٍ مُعَقَّرَة؟! أي: إن السلف لهم أعمال ولهم مواقف صحابة وتابعين ﷺ من النصرة والإنفاق وبذل الخير، والدعوة والجهاد والعلم، فهم على خيول مُضَمَّرة، قال: والله لتصلن بالقوم؛ ما دامت على هذا الطريق؛ لأنه مثلما قال الشافعي:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ

وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي ... وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَهْ

فحبهم والعمل بشيء ولو قليل من السنة وتمشي على الطريق تصل، المهم ألا تخرج على الرصيف، بل تمشي على الطريق لتصل، نعم تأتيك كدمات؛ شوكة في الطريق، لكنك في الأخير سوف تصل ما دمت على الطريق المستقيم.

المتنبي في أمور الدنيا لما ذهب إلى سيف الدولة تعب في الطريق وأضنى راحلته، وفي الأخير قال سيف الدولة: كأنك تعبت. قال:

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرَاً ... وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

يقول: الله يجزى المسير خيراً. هو بشر سافر إلى بشر، ولو كان ترك مطايانا تركها مثل المزاد، أي: مثل القِرَب البالية. فيقول: ما عليه التعب. فكيف إذا كان التعب لله؟ وكيف إذا كان السهر له ﷻ؟ وكيف إذا كان الجوع في سبيله؟!

عِمَارة اليمني سافر من مكة إلى الحاكم المعز الفاطمي في مصر، فانظر كيف يسافر بشر إلى بشر، ضعيف على ضعيف!، قال:

الْحَمْدُ لِلعِيسِ بَعْدَ الْحَمْدِ لِلذَّمَمِ ... حَمْدَاً يُزِيلُ شُكُوكَ الظَّنِّ وَالتُّهَمِ

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ ... مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلاَّ إِلَى حَرَمِ

حَيْثُ الْخِلافَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا ... تَجْرِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ

وَلِلْخِلافَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ ... تَبْنِي الْحَبِيبَيْنِ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكَمِ

وهو الذي يقول في المعز:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وَخَرَجْتُ مِنْ ... أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

فهؤلاء تقطعوا في رجاء أناس من العباد من الملوك ومن السلاطين، ومن الأمراء ومن الوزراء، ومن الوجهاء ومن الأغنياء ومن الأثرياء فكيف من قصد رب الأرض والسماوات ﷻ؟!

ذهب أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر بن حسين في خُراسان فضلّ في الطريق وضاع بالراحلة وضيع رفقة له -أي: وفداً- ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغ قُومس، وقومس هذه بلدة في إيران، فجاء بقصيدة هي من أجمل القصائد

وأحسن قصيدة مُدِحَ فيها جواد في تلك الحقبة، بعدما ضاع وأتى الصباح وكلَّت الرحل، يقول أبو تمام:

فِي قَوْمَسٍ صَحْبِي وَقَدْ وَخِدَتْ أَيْدِي الْمَطِيِّ مَعَ الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ

يقول: تعبت -والله- الإبل وتعبت الخيول.

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

يقول: قطَّعتنا في السفر، فتريد أنت مطلع الشمس، حيث ذهب ذو القرنين، ثلاث ليالٍ وهم ضائعون. ويقول: أنا أريد أن أذهب إلى عبد الله بن طاهر بن حسين، حيث يطلع الجود وشمس الجود هناك تطلع. وهذا من أحسن الكلام، وقيل: إنه انتحل البيت من مسلم بن الوليد الشاعر الذي يقول:

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْكَرَمِ

مدح فيه أميراً قبل، فتصرف فيه أبو تمام، وأبو تمام شاعر مطبق لا يُعلى عليه في الشعر.

obeikandl.com

الشيب والهرم

الشيب والهرم مرحلة من مراحل العمر، يمر بها الإنسان، ويصل إلى هناك وقد شحن بالتجارب والأمثال والحكم، وقد عرف الدهر وعرف الناس وعرف الأيام، بعضهم يصل إلى ذلك العمر وبعضهم يُقَدَّم له وينتهي في شبابه، لكن الحديث عمن وصل إلى سن الشيب وسن الهرم، حتى يقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. انظر كلمة: اشتعل، كأنك أحرقت شيئاً من النبات، فتغير لونه من النار، حتى يقول ابن دريد في شيبه:

يَا ظَبْيَةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَهَا تَرْعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَى

أَمَا تَرَى رَأْسِي حَاكَى لَوْنَهُ غُرَّةُ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى

وَاشْتَعَلَ الْمبْيَضُّ فِي مسْوَدِّهِ[1] مِثْلُ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الْغَضَى

هـذا هو أمـر الشيب الذي ينتظـره الإنسان، ولذلـك في الحديـث: «إِنَّ اللهَ يَسْتَحِيي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ فِي الإِسْلامِ». هذا هو عزوجل يستحيي، فكيف لا يستحيي العبـد منه، وسار على ذلك الأدباء، فمنهم من شكا من السبعين، ومنهم من شكا الثمانين، ومنهم من قال:

وَإِن امْـرأً قَـدْ سَـارَ سِتِّـينَ حَجَّـةً إِلَـى مَـنْـهَـلٍ مِـنْ وِرْدِه لَقَـرِيـبُ

يقول: قَرُب من مشى ستين، فكيف بالذي مشى ثمانين!

دخل عوف بن محلى إلى معاوية رضي الله عنه، فقال: ادْنُ مِنِّي. فَدَنَا مِنْهُ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: مَا تَسْمَعُنِي؟. قَالَ:

إِنَّ الـثَّـمَـانِـيـنَ وَبُـلِّـغْـتُـهَـا قَدْ أَحْوَجَتْ سمعي إِلَى تُرْجُمَانِ

في قصيدة طويلة، وقيل: إنما قالها عند المأمون، لا عند معاوية رضي الله عنه. وهذا الـذي أرجحه مع بعض الأدباء؛ لأن عوف بن مُحَلـى إنما عاش في عهد المأمون، وعبد الله بن طاهر بن حسين، وبين عبد الله بن طاهر بن حسين وبين معاوية ما يقرب من (١٠٠سنة) أو يزيد.

جـاء شيخ كبيـر بلغ الثمانيـن، وإذا أبناؤه معـه ينامون معه فـي بيته؛ لأنهم مسافـرون، فاحتاجوا أن يناموا في مكان واحـد، أتوا ينامون وإذا هو يسعل ويتأوه ويزفـر وينـدب ويتململ، قالوا: مـا هذا الأنيـن؟ فجلس ونظم قصيـدة من أروع القصائد عند العرب، حتى إن ابن الجوزي وأهل التاريخ ذكروا جزءًا منها يقول:

(١) المبيض: الشيب الأبيض في الرأس.

قَالُوا: أَنِينُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهِرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟. قُلْتُ: الثَّمَانِينَا

يقولون: كان في شبابه مُعدماً فقيراً وجمع وجمع وحاول أن يجمع المال وما تيسر المال، فأقبل عليه المال لما قرب الثمانين، قال:

مَلَكْتُهُ بَعْدَمَا جَاوَزْتُ سَبْعِينَا مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ عِشْرِينَا

تَمُرُّ بِنَا بَنَاتُ التُّرْكِ رَهِيفَةٌ مِثْلُ الظباء عَلَى كُثْبَانِ يَبْرِينَا

قَالُوا: أَنِينُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهِرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟. قُلْتُ: الثَّمَانِينَا

فالدنيا لا يستقيم لها حال، فتجد الشيخ الكبير يقبل له المال وقد ذهب الشباب، وتجد بعض المرضى ذا ثروة، وبعض الشباب معدم فقير، ومن صح بصره ضعُفَ سمعه، فلا قرار إلا في جنات النعيم بجوار الواحد الأحد ﷻ، حتى إن زهيراً في الجاهلية يقول:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً - لا أَبَا لَكَ - يَسْأَمِ

يقول: من يعش ثمانين سنة في الحياة يسأم من الحياة. وخاصة الحياة التي ليس فيها عبادة ولا قراءة ولا معرفة تكون حياة مملولة مكررة، اليوم مثل أمس، لكن طالب العلم والعابد دائماً يسمع قصة وموعظة وفائدة، ويقدم عملاً صالحاً ويقدم نافلة ويقدم خلقاً كريماً ويقدم تاريجاً مجيداً، فتجده يتجدد عمره وتتجدد الأيام، لكن تصور البائس أو المحروم من طاعة الله ﷻ تضيق الدنيا في عينيه؛ لأن الواحد الأحد أخذ على نفسه العهد، فيقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. حتى إن المتنبي يقول: لا تُصدقوا الشيخ إذا قال: آه. فإنه ما ملَّ من الحياة، فقال:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: آهٍ، فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَلَكِنَّ الشَّيْبَ مَلَّ

أي: إن الشيب ملَّ منه، أما هو فما ملَّ الحياة، نحن حريصون على الحياة، وله كلمات عجيبة حتى إنه يقول:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِتَرْكِ الْيَدَيْنِ مِنْهُ تَخَلَّى

حَتى قال الشوكاني في القصيدة نفسها: لا إله إلا الله ما أدق نظر المتنبي! ولا إله إلا الله ما أحسن حكمه! يقول: الإنسان إذا بكى من الدنيا فهو يبكي عليها، لا يتركها وهو ميت إلا وهو متشبث بها، حتى إنهم يسحبون الإنسان من الدنيا وهو متشبث بها. ولا يغرنك كلامهم؛ فإن أكثر الناس متشبثون بها.

ووجهوا رسائل في الشيخوخة، حتى إن شيخاً كبيراً مرَّ بشباب، فتغامزوا لما رأوا لحيته كلها بيضاء وهو منحنٍ وكانت لحيته طويلة على صدره كأنها قوس، فقال له أحد الشباب: يا شيخ، من أهدى لك هذا القوس؟ قال: أهدانيه الدهر وسوف يهدي لك قوساً مثله بلا ثمن. وهو ترقب الأيام والليالي، حتى إن الأندلسي أبو إسحاق الإلبيري مر، وإذا ابنه لاهٍ مع شباب في حديقة لا يطلب العلم ولا يقرأ القرآن ولا يحفظ ولا يقدم نافعاً للناس، لا رسالة نافعة عنده في الحياة، فنظم له قصيدة تقطع القلب يقول من ضمنها:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبِي أُرِيدُ أَنْتَا

إلى أن يقول فيها:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

يقول: قبيح الشاب أن يفعل خطأ وشراً، لكن أقبح وأشنع من ذلك الشيخ الكبير الذي يعود كأنه شاب في المخالفات، حتى يقول أبو الفتح البستي في قصيدته:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيْرُ مَحْضِ الْخَيْرِ نُقْصَانُ

إلى أن يقول فيها:

هَبِ الشَّبِيبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا مَا بَالُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

يقول: قدر أن الشاب يكون معذوراً؛ لأن عمر رضي الله عنه يقول: «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ». وحتى يقول حسان رضي الله عنه: «إِنمَا الشَّبَابُ وَاللِّمَّةُ السَّوْدَاءُ مَا لَمْ يُعَاصِمْ كَانَتْ جُنُوناً». فاللمة السوداء والشباب إذا لم يعصما الإنسان كان جنوناً، فشباب الإنسان شيء من الاندفاع إذا ما حده بتقوى وبعقل.

دُعِي أحد كبار السن إلى بعض المجالس اللاهية، فقال:

كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فالشيب ينهى ولذلك ترى كثيراً من الناس يفرح أن قد كبر من أجل أن يعود له عقله وتنضج تجربته ويستقيم نهجه، حتى إن علي بن جبلة العكوك يقول:

وَأَرَى اللَّيَالِي مَا طَوتْ مِنْ قُوَّتِي وَجِدَّتِي رَدَّتْهُ فِي عِظَتِي وَفِي إِفْهَامِي

فيقول: الليالي، كلما أضعفت من جسمي ردته في عظتي وفي ذهني وفي فكري، ولذلك ترى الكبير يضعف في جسمه، لكن عقله يتوقد، والشاب جسمه، قوي لكن عقله فيه طيش بخلاف هذا.

فكانوا يفرحون بالشيب ويرحبون به، يقول الأندلسي:

ذَهَبَ الشَّبَابُ بِجَهْلِهِ وَبِعَارِهِ وَأَتَى الْمَشِيبُ بِحِلْمِهِ وَوَقَارِهِ

فإذا عُلِمَ هذا، فإن بعضهم كان يتمنى الشباب أيضاً؛ لأن في الشباب النوم الهنيء والتمتع بالحياة الطيبة والسمع الحاد والبصر القوي والذاكرة المتوقدة والنشاط والمسابقة، وإلى غير ذلك، حتى يقول أبو العتاهية:

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

فيقول: يا ليت شبابنا يرجع إلينا فأخبره ما فعل بنا هذا المشيب. فالمشيب يجعلك لا تنام إلا قليلاً؛ سعال وصداع وأمراض وأوجاع وشكوى، حتى إنك تجد الشيخ الكبير، وخاصة إذا لم يكن عنده معرفة أو تلاوة أو ذكر لله ﷻ وعلم يمل، وربما يذهب بعضهم يعالجونه؛ لأنه انتهى فهو يعيش وحده؛ عنده فراغ فلا رصيد من العمل ولا رصيد من الذكر ولا أعمال يقدمها من الخير، فيقول:

أَلا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمَاً فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

النساء لا يريدنه، حتى يقول أحدهم:

رَأَيْنَ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لاحَتْ بِعَارِضِي فَأَعْرَضْنَ عَنِّي بِالْخُدُودِ النَّوَاضِرِ

فهم يكرهون الشيب من أجل هذا، ولكنهم يسترونه، حتى إن المتنبي يقول:

وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَاتِي تَرَكْتُ شَعْرَاً بِرَأْسِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

يقول: إنه من صدقي ووضوحي وشفافيتي أنني لا أخضب شعري.

هذه مسألة أخرى، لكننا نعود إلى مسألة الهرم.

وثلاثة لا يهرمون: حافظ القرآن العامل به، والجواد الذي نفع المسلمين نفعاً موصلاً لهم الخير لوجه الله ﷻ، والحاكم العادل الوالي المقسط في الرعية. يحفظهم الله من الخرف ومن الهذيان، ويجعلهم مسددين حتى يقول ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

دخلوا على رجل في سنته المئة، فسألوه: كيف وجدت الحياة؟ قال: والله كأنه بيت أو كأنه غرفة لها بابان دخلت من هذا وخرجت من ذاك.

وقيل لأحدهم -وقد بلغ المئة-: كيف وجدت الحياة؟ قال: كأن رجلين: رجل في ليلة رأى أنه تعشى أحسن الطعام ولبس أحسن الثياب وهو في قصر منيف وفي

حديقة غناء، ورجل بجانبه رأى في المنام مثلما فعل هذا في اليقظة. أي: إنها أحلام يقظة، فكأنك ترى الحياة مثل الفيلم ومثل المسرحية، حتى يقول الكوفي صاحب العادات السبع في رسالة له: إنه زار مقبرة كاليفورنيا، فعجب؛ قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر هذا البائس الفقير. حتى يقول ابن الزبعرى:

وَالْخَسِيسَاتُ قَلِيلٌ بَيْنَهَا ... وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقِلْ

فقبر هذا المثري شبيه بقبر الفقير البائس الحقير؛ لأن القبور لا تُفَرِّق.

يقول أحدهم:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا: ... أَيْنَ الْمُعَظَّمُ وَالْمُحْتَقَرْ؟

تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبَرْ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الثَّرَى (١) ... فَتَمْحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرْ

فَيَا سَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا، ... أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبَرْ

يقول المتنبي:

أَبَنِي أَبِينَا، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ ... أَبَداً غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

الفراق دائم؛ فهذه جنازة هذا وهذا يحط وهذا يودع كأننا في محطة قطار أو مطار مسافرين.

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الأَكَاسِرَةُ الأُلَى ... كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَلا بَقِينَ وَلا بَقُوا

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ ... حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

(١) بنات الثرى: الدود. تروح على الخدود، وعلى العيون، وعلى المباسم.

تجد الإنسان كأنه يملك الدنيا والناس والجنود والبنود والأعلام وأقواس النصر، ثم يُلف في خرقة ويُدس في التراب.

حتى إنك إذا كلمتهم لا يردون عليك، تسلم على المقبرة ولا أحد، يقول:

مَا فِي الدِّيَارِ لِمُخْبِرٍ ... إِلاَّ الصَّدَى لِمُصَوِّتِ

نَادَيْتُ: أَيْنَ أَحِبَّتِي؟ ... فَأُجِبْتُ: أَيْنَ أَحِبَّتِي؟

أي: إنه جاء المقبرة، وصاح: أين أحبتي؟ فلم يسمع إلا الصدى، فرجع عليه الصوت: أين أحبتي، فقال:

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا ... أَنَّ الْكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

فلا أحد حرم عليهم الكلام فلِمَ لا يردون علينا الكلام؟

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ ... وَالْمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

فإذا رأيت الإنسان يستعز بما عنده من مال أو ولد أو منصب ولا يستعز بما له عند الله من طاعة فهو أحمق، فيه خَبَلٌ وهَبَلٌ.

وَالْمَرْءُ يَأْمَنُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ ... وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَلْزَقُ

فَمع الشيب العقل والحكمة والأناة والبصيرة وتدارس العواقب، ومع الشباب الهمة والطموح والإقبال، فكونوا في عقول الشيوخ وفي همم الشباب؛ حتى تصلوا إلى المجد الدنيوي والأخروي بإذن الله.

الفرج بعد الشدة

الفـرج بعد الشدة كلمة جميلة يرتاح لها كل إنسـان؛ لأنه ما مـن أحد إلا ويمر بـه شدة، فهو يريد الفـرج، والله ﷻ قد بشرنا أن مع كل يسر عسـر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. فنُكِّر اليسر فصـار مغايراً لليسر الأول، بينمـا المعرفـة واحـدة فـي العسـر هنا والعسر هناك.

ونظـم أهـل الأدب في ذلك بعض القوافي الجميلـة يخبـرون الناس بأنهم سـوف يسعدون بعد الشدة، وسوف يأتيهـم الفرج، حتى إن علي ابن جبلة العكوك يقول:

عَسَى فَرَجٌ يَكُونُ عَسَى ... نُعَلِّلُ نَفْسَنَا بِعَسَى
فَلا تَجْزَعْ إِذا حَصَلَتْ ... هَمَّاً يَقْطَعُ النَّفَسَا
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْمَرْ ... ءُ مِنْ فَرَجٍ إِذَا يَئِسَا

ولذلك إذا اشتدت الظلمة جاء الفجر، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد وأنت تمشي فاعرف أن وراءها الخير وبعد التل ترى أرضاً خضراء، وابن السكيت يقول:

إِذا اسْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ ... وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ ... وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لانْكِسَافِ الضُّرِّ نَفْعَاً ... وَمَا أَجْدَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ أَمْرٌ ... يَمُرُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ ... فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرَجٌ قَرِيبُ

هذا الفرج سوف يأتي ويصل إلى المريض إذا كتب الله له عافية، وإلى المحبوس وإلى الْمُبتلى وإلى المدين وإلى الضال وإلى المكسور والمصاب، وإلى غير ذلك من الْمُبْتَلَين والمعذَّبِينَ، حتى إن ابن الرومي له إشراقات وهو الذي يقول بعدما فارق بغداد:

لَعَلَّ اللَّيَالِي بَعْدَ شَحْطٍ مِنَ النَّوَى ... سَتَجْمَعُنَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الْمَآلِفِ
نَعَمْ إِنَّ لِلأَيَّامِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا ... عَوَاطِفَ مِنْ أَفْضَالِهِ الْمُتَعَاطِفِ

فهي الليالي شتى وألوان، ليلة لك وليلة عليك، ويوم لك ويوم عليك وكما يقول عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فينبغي أن تكون محتسباً منتظراً الفرج، حتى يقول أحدهم:

وَلَـرُبَّ نَـازِلَـةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعـاً وَعِـنْـدَ اللهِ مِـنْهَا الْـمَـخْـرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُـرِجَـتْ وَكُـنْـتُ أَظُـنُّـهَـا لا تُـفْـرَجُ

لأن المفرج ﷻ موجود ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. حتى إن بعضهم كان يستبشر إذا اشتدت المصيبة والمشكلة، فقد أذن حلها بإذن الواحد الأحد، حتى كان يقول:

اشْـتَـدِّي أَزْمَـــةُ تَـنْـفَـرِجِـي قَـدْ آذَنَ لَـيْـلُـكِ بِـالْـبَـلَـجِ

بالبلج، أي: بالصبح وبالسَّفَر. ومن أحسن ما حُفِظ من الكلمات ما نسبوه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه كان يَرْمل، وكان يهزأ بها:

الْـغَـمَـرَاتُ ثُـمَّ يَـنْـجَـلِـنَّـهْ ثُـمَّـةَ يَـذْهَـبْـنَ وَلا يَـجِـنَّـهْ

الغمرات هي الأزمات والكربات التي تأتيك ثم تنجلي عنك، تذهب عنك وتصبح في فرج وفي يسر وفي سهولة، فينبغي للمسلم أن يكون واثقاً بالله ﷻ، حتى أهل الجاهلية كانوا يثقون وكانوا يطلبون من ربهم الفرج، وحتى المشركين ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وهم في الأزمة يعرفون أن هناك رباً على العرش استوى يفرِّجُ ويكشف الكربات، ويعافي المبتلى ويشفي المريض، ولذلك يقول النابغة يمدح عمرو بن هند:

ولا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِمِ

يقول: إذا جاءهم نعيم فلا يتكبرون ولا يبطرون ولا يفترون على الناس، بل يخافون من الليالي ويخافون من الانقلاب، وإذا جاءتهم مصيبة أو أزمة، فلا يستسلمون ويصيبهم الوهن. لأن بعض الناس يظنها النهاية، فقال:

ولا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

في قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ ... وَلا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بِصَاحِبِي

التي يقول فيها يمدح هؤلاء:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وهذا مدح بما يُشبه الذم، يقول: كل خصالكم جميلة ورائعة، لكن فيكم عيباً واحداً. حتى إن أحد الشعراء الشعبيين يمدح أحد الوجهاء، يقول:

شِيْخَ القَوَافِي يَا قَلِيلَ العَذَارِيب ... لو تسْتحي ما تَجْمعُ الطيبَ كلّه

وهذا من المبالغة.

ويقول النابغة: عيبكم شيء واحد، وهو أن سيوفكم مثلمة من شدة ما تواجهتم مع الأعداء من قراع الكتائب.

ولذلك وفد عُروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان، بعدما انتصر عبد الملك، وقتل مصعب بن الزبير في العراق، فأتى عروة فقال: رد سيف أخي مصعب من عندك. قال: ما نعرف سيف مُصعب. قال: أرني السيوف وأنا أعرفه. فأراه، فإذا فيه ثلمة ضرب به الزبير بن العوام رضي الله عنه في بدر مع رسول الله ﷺ في المشركين، قال: بِمَ عَرفته؟. قال:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

تَوُرِثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارُبِ

حتى يقول من ضمن القصيدة، ومن أروع ما قيل يمدح الملوك بأنهم منعمون، حتى إنهم يلبسون لباساً جيداً، وكما في صحيح مسلم: «جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». الرجل يقول: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي جَمِيلاً وَنَعْلِي جَمِيلاً، أَذَاكَ

مـنَ الْكِبْـر؟ قـالَ ﷺ: «لا إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَـالَ». الكبر غمط الناس وبطر الحق، يقول النابغة:

رِقَـاقُ النِّعَـالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُـمْ ... يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ عِيد السَّبَاسِبِ

يقـول: يفوح منهـا المسـك. عيدهم هنـاك اسمـه: السباسـب. فيخرجون الجـواري والولـدان يحيونهـم بالرياحين على الشـوارع والسكك يـوم المهرجان ويصطف الجمهور لهم، وقصدي هنا:

وَيَحْسَبُونَ الْخَيْرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ ... وَلا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِمِ

حتـى يقـول يعقـوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلا تيأس ما دام أن هناك ربًّا يُدْعَى عز وجل يفرج الكربات، ألحَّ عليه واسأله.

بالأمس القريـب كنت أنـا والشيخ د. سعـد البريك في طائـرة من المنامة إلـى الرياض، ولمـا أقبلنا من مطار الرياض قالوا: هنـاك خلل فني في الطائرة، وأمور رعدية في الجو. فلما اقتربنا ما استطعنا الهبوط، وبقينا فوق سماء الرياض نصف ساعة، فتذكرت كلاماً كنت قد قلته وهو:

كَمْ نَطْلُبُ اللهَ فِي ضَرَرٍ يَحِلُّ بِنَا ... فَـإِنْ تَـوَلَّـتْ بَلايَـانَـا نَسِينَـاهُ

نَدْعُوهُ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُنْجِي سَفِينَتَنَا ... فَإِنْ رَجَعْنَا عَلَى الشَّاطِي عَصَيْنَاهُ

وَنَرْكَبُ الْجَوَّ فِي زَهْوٍ وَفِي دَعَةٍ ... فَمَـا سَقَطْنَـا لأَنَّ الْحَافِظَ اللهُ

أبو العتاهية يقول:

كَـمْ مَـرَّةً حَفَّتْ بِـكَ الْمَكَـارِهْ ... يحفظك اللهُ وَأَنْـتَ كَـارِهْ

يقـول: كم مرة سجنت وخرجت، وكم افتقرت واغتنيت، وكم مرة أخذت ديناً وقضيت، وكم مرة مرضت وأخذوك إلى السرير الأبيض، وخرجت وتشافيت، وكم مرة جعت وشبعت.

ولذلك مُلِّرَ قائد البحرية الأمريكية غرق في بحر اليابان بصاروخ، قال: فنزلت تحت الماء (١٣ يوماً) وانقطع الاتصال بالعالم الخارجي، وخرجت بثلاث حقائق:

الأولى: أن هناك إلهاً يحكم العالم ويحكم الكون لا إله إلا الله.

الثانية: الذي ما عنده إلا خبز دافئ وماء بارد كفاه.

الثالث: لا تجزي القوة الصغرى تتصل بها في الأزمات عن القوة العظمى. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ولذلك يقول يوسف عليه السلام في الزنزانة: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. لما سألوه عن تعبير الرؤيا فدلهم على أن الواحد القهار هو خير عز وجل وهو الذي تفرد بالأسماء والصفات والأفعال، وهنا يقول أبو تمام:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

أي: إنه خير من الله عز وجل، أحياناً يكون ظنك أنك في بلوى وأنك في شدة، فقير، لكنك حقيقة في نعمة؛ فربما منعك من الربا ومنعك من العصيان ومنعك من أمور لا تعلمها أنت ولا تدري ما هي، وقد يُنْعِم الله على قوم بالبلوى ويبتلي الله قوماً بالنعم. وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. حتى يقول أبو الطيب:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ... فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

أحياناً تأتيك علة وفيها صحة الجسم، وأحيانا تأتيك مصيبة وفيها نجاحك واستمرارك، وأحيانا محنة وفيها المنحة لك، وأحياناً تقع في بلية وهي العطية وأنت لا تدري، ورب ضارة نافعة من حكم الباري عز وجل، فاختيار الله لنا أحسن من اختيارنا لأنفسنا، وكما يقول ابن قاضي:

لا تَشْتَكِي - يَا وَاحِدُ - بَاتَ مَهْمُومٌ تَـرَى الـفَـرَجَ عِنْدَ قُـرابِ الـحِزَام
وَإِنْ كَانَ عَيْنُكَ خَالَفَتْ مُدَّةَ النُّورِ أَنْـتَ تَـنَـام وخَـالِـقُـكَ مَـا يَـنَـام

لك سجدة، أو تشير بالسبابة لله الواحد الأحد عز وجل.

وقد فُرِّج عن المسلمين في كابول لما فتحها محمد بن واسع أشر بالسبابة: يا حيٌّ يا قيوم يا حيٌّ يا قيوم، تحرك الجيش ففُتِحت، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. من يُدير الكون غيره عز وجل.

فقصدي أنه ينبغي أن نتأمل، وأن يكون عندنا انتظار لموعود الله عز وجل ونمني أنفسنا بأنه أقبل الفرج.

وقد سمعت كلام المفسرين والأدباء والحكماء والشعراء كلهم أجمع على ذلك، حتى أهل الجاهلية وأهل الإسلام. وفي كتاب (بزرجمهر) أن عجوزاً فارسية كان لها كوخ بجانب قصر كسرى، فلما ذهبت قالت: يا ربِّ، أستودعك كوخي وما فيه وأنت لا تضيع ودائعك. فإنهم مقِرُّون كما كل الأمم أن هناك إلهاً يدير الكون، يقول ابن تيمية: ما ينكر الصالح في الظاهر إلا فرعون، أما في الباطن، ففرعون يعترف بذلك. حتى إن موسى عليه السلام يقول: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. أي: والله إنك في نفسك تعرف أن هذا الكون لا تخلقه أنت، فأنت ذرة من ذرات الدنيا وإلا فستركب الأفلاك وهذا الكون. راحت هذه العجوز في عهد كسرى، فعدا الجنود على كل شيء وأخذوا الدجاج فأكلوه وهدموا الكوخ، فلما أتت قالت: يا ربِّ، غِبْتُ أنا فأين أنت يا ربِّ؟!. أستغفر الله، ثم دعت عليه، وافقت دعوتها سيد الخلق ﷺ، في تلك الأثناء أرسل ﷺ خطاباً لكسرى، فلما قرأه متكبراً ومزّقه، فأخبر الرسول الذي أرسله ﷺ، فقال: «مَزَّقَ كِتَابَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ كَمَا مَزَّقَ كِتَابِي». فبعدها بليلة عدا عليه ابنه بالخنجر، فمزقه في فراشه. قالها الحافظ الذهبي وابن كثير وغيرهما، فمزقه في الفراش.

وعلى ذكر العجائز كانت عجوزٌ في عهد ابن الفرات، يقولون: اعتدى على بستان لها وأخذه وضمَّ معه الصك عنده، فقالت للوزير: اتقِ الله فالدار داري، والله لأدعونَّ عليك. فقال: انتظري الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير شيء عظيم. فانتظرت الثلث الأخير شهراً وهي ترسل رسائل، مدادها وحبرها الدموع وقراطيسها الدموع وترسلها في السحر وتصل العرش مباشرة، وجاء الجواب بعد شهر، فجاء الخليفة وأخذ ابن الفرات وجلد ظهره وقطع يده وعلَّقها عند باب الخلافة، ومرَّت عليه وإذا هو يُجلد والخيزران تشتغل على ظهره في الظهيرة، فقالت: والله من أحسن ما يكون الثلث الأخير، وإنك نصحتني بهذا وجزاك الله خيراً أن نصحتني بهذا. ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ ... وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ

فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ... لِقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فانظر كيف صبت عليه جام غضبها، فأجاب الله ﷻ دعوتها، حتى إنه تعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فكما هو منهج عند كثير من العقلاء في العالم بغض النظر أنه سوف يُسهل الأمر، ولذلك ينبغي لمن ليس عنده فهم ولا علم أنه إذا مرت به أزمة أن يقول:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ

ويقول آخر:

لَطَائِفُ اللهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى ... كَلَمْحَةِ الطَّرْفِ إِذَا الطَّرْفُ بدا

كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إِيَاسٍ قَدْ أَتَى ... وَكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الأَسَى

مَنْ يُحْسِنِ الظنَ بِذِي الْعَرْشِ جَنَى ... حُلْوَاً جَنَى الشَّائِكُ مِنْ شَوْكِ السَّفَى

مَنْ يَتَجَرَّعْ غُصَصَ الصَّبْرِ ... يَذُقْ حَلاوَةَ عَلَى طُولِ الْمَدَى

سُبْحَانَ مَنْ يَعْفُو وَيَهْفُو دَائِمَاً ... وَلا يَزَالُ مَهْمَا هَفَى الْعَبْدُ عَفَا

يُعْطِي الَّذِي يُخْفِي وَلا يَمْنَعُهُ ... جَلالُهُ عَنِ الْعَطَا لِذِي الْخَطَا

فهو ﷻ متفضل علينا حتى في الأثر القدسي: «**خَيْرِي إِلَيْكَ - يَا بْنَ آدَمَ - نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ وَتَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، خَلَقْتُكَ وَتَعْبُدُ غَيْرِي وَرَزَقْتُكَ وَتَشْكُرُ سِوَايَ**». فالنعم كلها والستر والعفاف والغنى من الله الواحد الأحد، والدنو والتقصير من العبد، فغالب العبد صاحب هوى ونفس أمارة وشيطان ودُنيا مؤثرة، لكن العجيب أن الإنسان إذا وقع في مأزق أو مشكلة ظن أنه انتهى الحال به، ولكن لم ينته ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

obeikandl.com

الوطن

الوطن مضغة من القلب؛ لأنه مسقط الرأس، دَرَجْتَ على تراب الوطن واستنشقت هواءه وشربت ماءه، فأصبح الوطن يجري حبه في دمك، ولذلك في القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]. فجعل قتل النفس شقيق الخروج من الوطن، حتى إنه لما أُخْرِج ﷺ من مكة من مرابع فتوته وملاعب صباه ومغاني شبابه، التفت إلى مكة ونظر إليها وبكى، قال: «وَاللهِ - يَا مَكَّةُ - إِنَّكِ مِنْ أَحَبِّ بِلادِ اللهِ إِلَيَّ،

وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ». فكان يحن لها ﷺ ويتمنى أن يبقى فيها، ولكنه ﷺ طُرِدَ منها، حتى يقول أحدهم:

يَا طَرِيداً مَلأَ الدُّنْيَا اسْمُهُ ... وَغَدَا لَحْناً عَلَى كُلِّ الشِّفَاهْ
وَغَدَتْ سِيرَتُهُ أُنْشُودَةً ... يَتَلَقَّاهَا رُوَاةٌ عَنْ رُوَاهْ
هَلْ دَرَتْ مَنْ طَارَدَتْهُ أُمَّةٌ ... هُبَلٌ مَعْبُودُهَا شَاهَتْ وَشَاهْ
طَارَدَتْ فِي الْبِيدِ مَنْ بَوَّأَهَا ... مَنْزِلاً لا يَبْلُغُ النَّجْمُ مَدَاهْ

فهو ﷺ كان يحن إلى الوطن، وفي بعض الآثار: «**حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ**». ولما هاجر الصحابة ﷺ أصابت الحمى بلال بن رباح رضي الله عنه في المدينة، فكانوا يمرون به ويرفع عقيرته وينشد بصوته الجميل الندي الذي كان يؤذن به، فيهز به أطناب القلوب، فيمرون عليه وهو ينشد ويقول ويستشهد بشعر ليس له رضي الله عنه بل لشاعر قديم:

يَا لَيتَ شِعْرِي هَلْ أُعرّسُ لَيْلَةً ... فَأَشُمَّ حَولِي إذْخِراً وجَلِيلاَ(١)
أَو تَرُونِي يَوماً مِيَاهَ مِجَنَّةٍ ... ويَشِيمُ طرفي شَامَةً وطَفِيلاَ(٢)

يا ليت شعري هل تطول بي الحياة وأعود إلى مكة، وأرى الإذخر والجليل أشمهما وأتمتع برؤيتهما، وهل أرد ماء مجنة فأشرب منه ولو شربة قبل الموت، وأرى جبل شامة وطفيل أمامي. إنه حب الوطن والولوع إلى تلك الديار وتلك المنازل، ولذلك يقول ابن الرومي -وهذا أحسن كلام في الوطن لابن الرومي-:

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلاَّ أَبِيعَهُ ... وَأَلاَّ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكَا
عَهِدْتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً ... كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلالِكَا

---

(١) مجنة: ماء في مكة. (٢) الإذخر: شجر.

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ ... مَعَاهِدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمُ ... عُهُودُ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

السمكة لا تريد إلا موطنها في الماء، والسلحفاة تريد مكانها، والطائر يريد العش، والنملة تريد بيتها، والإنسان يحن لموطنه وتجده عاشقاً لهذا الوطن متعلقاً به، فطرة من الله ﷻ حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لِقَلْبٍ حَلَّ جَرْعَاءَ الْحِمَى ... ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيْ

فَاسْأَلُوا سُكَّانَ وَادِي سَلَمٍ ... فَهْوَ مَا بَيْنَ كُدَاءٍ وَكُدَيْ

يقول: تلك منازل قلبي هناك، حيث أسكن.

وعروة بن حزام كان ينزل هنا، يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافُ نَجْدٍ إِن هُمَا شفيَانِي

حتى إن شوقي أمير الشعراء لما نُفي من مصر يقول:

أَحَرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْحُ ... حَلالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ ... نَازَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

ولكن معنى هذا البيت خاطئ، ومعناه يقول: لو كنت في جنات النعيم لاشتقت، وأنا داخل الجنة إلى وطني، وهذا خطأ ومبالغة، وهو الذي يقول في دمشق:

لَمَّا مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ ... هَلْ فِي الْمُصَلَّى أَوِ الْمِحْرَابُ مَرْوَانُ

إلى أن دخل دمشق، يقول:

أَتَى يُصَفِّقُ يَلْقَانَا بِهَا بَرَدَى [1] ... كَمَا تَلَقَّاكَ دُونَ الْخُلْدِ رَضْوَانُ

(١) نهر بردى.

وَالْحُورُ فِي دُمَّرٍ أَوْ دُونَ هَامَتِهِ ... حُورُ الْحَرَائِرِ زَانَتْهُنَّ عُقْيَانُ

وَرَبْوَةُ الْوَادِ فِي جِلْبَابِ رَاقِصَةٍ ... الصَّدْرُ كَاسِيَةٌ وَالسَّاقُ عِرْيَانُ

إلى آخر ما قال، وهذه من أحسن قصائده على كل حال، وإلا فله قصيدة في دمشق، بعدما انتصر السوريون على الفرنسيين، فقال:

سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقّ ... وَدَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشْقُ

وَمَعْذِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي ... جَلالُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفٍ يَدِقُّ

دَخَلْتُكِ وَالأَصِيلُ لَهُ ائْتِلاقٌ ... وَوَجهُكِ ضاحِكُ القَسَمَاتِ طَلْقُ

دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ... وَتَعْرِفُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ

وَلِلْحُرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ ... بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

على أن الشيخ الكبير الأديب علي الطنطاوي يعترض على القصيدة ويقول: أُقٌّ، أُقٌّ، القصيدة متعبة في القافية. مع العلم أنها من أجمل القصائد، وهذه وجهة نظر للشيخ علي الطنطاوي، وإلا فإن قصيدته هذه يحتفلون بها، ولكن النونية عندي في دمشق لشوقي أحسن من هذه القافية التي ذكرها.

وابن الخياط له مقطوعة في نجد؛ لأنه مر بنجد، وقبّل نجد يقول في كتاب الحماسة:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِي[1] ... بِنَا نَحْوَ الْمَجَرَّةِ فَالضِّمَارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وهذا من أجمل ما يكون في الأدب، حتى يقول ابن الخياط:

(١) يقول: المسافرون تاركو نجد ويريدون أن يذهبوا إلى الحجاز، فيوصي صاحبه.

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاذاً لِقَلْبِهِ ... فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ ... إِذا هَبَّ كانَ الْوَجْدُ أَيْسَرُ خَطْبِهِ

فدل على أن حب الوطن مركوز في طبائع الناس، حتى إنك لو حدَّثت الإفريقي الذي يعيش في الصحراء التي تكاد حرارتها تُقَطِّع البدن يرى أنه في جنات النعيم، والشمالي الذي في القطب كذلك، حكمة بالغة أن حبب الله ﷻ أهل الديار إلى ديارهم؛ لِتُسْكَن الأرض وتُعْمَر.

كانت خزاعة قبل قريش في مكة، ثم أُبيدت خزاعة، وأُبيدت من قبل خزاعة قبائل، وهذه سنة الله ﷻ في الأمم والدول والشعوب والقبائل، أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وقبيلة بعد قبيلة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. قيل: في مكة كان رجل من خزاعة تأثر وبكى لما رأى قبور الناس من خزاعة في مكة، فقال:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمَعْ بِمَكَّةَ سَامِعُ

ويقول هارون الرشيد:

بَلْ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا ... صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالجُنُودُ العَوَاثِرُ

علماً أنه لا يجوز للإنسان أن يتشاءم، ويقول: حظي العاثر أو المشؤوم. لا، أمة تذهب، أمة سادت ثم بادت، ملك علا ثم هوى ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ نَمْرُودُ وَمَنْ ... وَلِيَ الأَحْكَامَ طَوْراً وَعَزَلْ

كُتِبَ المَوْتُ عَلَى الكُلِّ فَكَمْ ... فَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ

وتفرد هو بالبقاء ﷻ فينبغي أن يُلاحظ أن حب الوطن ليس كما يقول بعض الناس: الوطنية محرمة. لا، الوطنية إذا كان يحب الوطن أكثر من الإسلام أكثر

معتقداً فلا يجوز، لكن إذا أحب وطنه من باب الوفاء ودافع عن وطنه، فهذا لا بأس به، كل الأمم تدافع عن أوطانها، ولما دافع العراقيون عن بلادهم قال أحد الشعراء العراقيين:

مُتَمَّمُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ

فينبغي للإنسان أن يعتقد هذا ويعيش دفاعاً عن معتقده وعن وطنه، وإن رجلاً لا يحب دينه قبل كل شيء ثم يحب وطنه فإنه مشكوك في انتمائه وفي وفائه، قالوا: يُعرف الرجل بوفائه لأمرين: بوفائه لوطنه، وبوفائه لإخوانه. فلهذا تجده يحن لفلان ويتذكره فاعرف أن فيه مروءة وأن معدِنَه طيب، وإذا حن إلى وطنه ومراتع شبابه وملاعب صباه فاعرف أنه وفيّ، أما القاطع الجافي فإنه يتنكر لأوطانه ولإخوانه، فلا يذكر الوطن بخير ولا يذكر إخوانه بخير، فتجده سيّان عنده بلاده وغيرها، فكيف إذا كان الوطن مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق التعاليم الربانية؟! وكيف إذا كان هذا الوطن تراباً مشى عليه محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟! وكيف هذا إذا كان هذا الوطن جبريل عليه السلام التقى على ظهره بمحمد ﷺ؟

هذا هو وطننا، وطننا الذي رضيه لنا الله عز وجل وفيه أم القرى وفيه المقدسات وفيه مهبط الوحي، حتى يرى كل مسلم أن من المعتقد أن يحب هذا الوطن؛ لأن فيه قبلة المسلمين التي يؤمها الناس، فنحن نقول: نسأل الله أن يجعل وطننا الأم في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأن ذاك الوطن هو وطننا الأساسي؛ لأن أبانا آدم كان في تلك الجنة.

كنا في وطننا ذاك، كنا في جنات النعيم، لكن أبانا آدم عليه السلام لما أكل من تلك الشجرة وكتب الله عز وجل عليه تلك المعصية هبط بنا، فالواجب أن نَحِنَّ إلى ذلك الوطن لنعود إليه؛ لأن ذاك الوطن لا خوف فيه ولا قلق ولا مرض ولا اضطراب، ولكنها جنات ونهر في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

الوطن

هـذه بعض اللمسات على الأوطان، وقد بكـى الشعراء وتفجعوا على أوطانهم وهـم يُخرجون، حتى إننـي رأيت أول بيت فـي الأغاني لأبي فـرج الأصبهاني أول الأبيـات، يقول: إن أحد الموالي طُرِد مـن المدينة، طرده أمير المدينة إلى الشام فبكـى لما نظر إلى نخـل المدينة وتذكر مراتع الصبا فـي المدينة وتذكر زملاءه وأصدقاءه وأحبابه، وسار إلى أبواب جيرون وجيرون هي دمشق بالرومية، قال:

النَّخْلُ وَالْقَصْرُ وَالْجَمَّاءُ بَيْنَهُمَا أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ أَبْوَابِ جِيرُونِ

يقصـد النخل والبئر، والجماء مزرعة لسعيد بـن أبي العاص وسعيد بن أبي العاص في المدينـة والبئر بئره في المزرعة والقصر قصر بناه هناك، فيقول: يا ليت لي القصر والبئر والجماء بينهما، فذلك أشهى إلى النفس من أبواب جيرون، أحسـن عندي مـن أبواب دمشق لكني أصبحت غريبـاً. فالغريب يحن إلى أوطانه إذا نُفِـي من الوطن، والنفي من الوطن أصعب شيء على النفس ومن أشقه؛ لأنك تذهـب عن إخوانـك وتذهب عن أترابك لمـا ألفتهم وأنستهـم، تذهب عن أشياء ارتبطـت بها وأصبحت جزءاً من حياتـك وذاكرتك، فأنت لا تتخلى عنها بسهولة، فيُصبح حكماً بالإعدام الغيابي على هذه الروح التي تحملها.

وأنت تتذكر هذا الوطن الذي كنت تعيش فيه، فالواجب أن يحسن إلى الوطن بأن يكون عضواً صالحاً في وطنه، يحمل المعتقد الحق والكلمة الطيبة ويدعو إلى الفضيلة، ويشارك في بناء وطنه ويذب عنه العدوان، ويجتمع مع إخوانه على كلمة الحـق: لا إله إلا الله، محمـد رسول الله. ويكون وفياً لوطنـه، والحقيقة أن أوطان المسلمين يجب أن تُقَدَّر جميعاً.

وَكُلَّمَا ذُكِـرَ اسْـمُ اللهِ فِـي بَلَـدٍ عَدَدْتُ ذَاكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

وقد قال بعضهم:

أَنَا الْحِجَازٌ، أَنَا نَجْدٌ، أَنَا يَمَنٌ الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي

وهذا أبو تمام يشكو من أنه لم يستقر في وطن واحد، فهو مشرد، مرة يذهب يمدح هذا، ثم يرده هذا إلى ذاك، ومرة يطرده الوالي إلى والٍ آخر، فيقول:

فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا ... بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

يقول: إني معذب ومشتت، ولكن يجتمع قلب الإنسان إذا كان مع ربه ﷻ، فإن كان مع الله كان الله معه، آنسه من وحدة وآواه من غربة وأطعمه من جوع وأغناه من فقر ونصره من قوة وأعزّه من ذلة.

وقد قرأت عن موسى عليه السلام كما في كتب السير أنه لما نزل في أرض مدين أوى إلى الشجرة، بعدما كشف الغطاء للفتاتين وسقى لهما أغنامهما، فقال: يا ربِّ أنا فقير، يا ربِّ، أنا غريب، يا ربِّ أنا جائع، يا ربِّ أنا ضعيف. فأوحى الله إليه: يا موسى، الغريبُ من لم أكن أنا مؤنسه، والجائع من لم أكن أنا مطعمه، والفقير من ألم أكن أنا مغنيه، والضعيف من لم أكن أنا مقويه. ورُوِي عن يوسف عليه السلام أنه لما أُلقِي في الجب كان وحده، فأنزل الله ﷻ عليه السكينة، فأخذ يسبح الله ﷻ فجعله الله على صخرة في الجب الذي فيه ماء فأنقذه ﷻ ورده وأصبح ملكاً وتولى وطناً.

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ ... مَعَاهِدُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا

إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمُ ... عُهُودُ الصِّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَا

الوقت

الوقت هو العمر والوقت هو الحياة، والوقت هو المتكون من الدقائق والثواني التي تمر بك. ولذلك يقول ﷻ: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]. فهو يسألهم ﷻ حتى عن الوقت وعن العمر، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تَزُول قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ**». وذكر: «**عُمْرَهُ فِيمَا أَبْلاهُ**». يسأل عن عمره فيما صرفه، وعند البخاري: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**». فالوقت

تكلم عنه الشعراء والحكماء على أنه كنز للتجارب وفعل للخير وإسدال المعروف ونفع الآخرين، حتى إن أبا تمام في أبيات جميلة لَخَّص تجربته مع الوقت والأيام، يقول:

مَرَّتْ سِنِينٌ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا ... فَكَأَنَّهَا مِنْ قِصَرِهَا أَيَّامُ

ثُمَّ انْثَنَتْ أَيَّامُ هَجْرٍ بَعْدَهَا ... فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامُ

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينُ وَأَهْلُهَا ... فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلامُ

هذا هو الوقت. ولذلك يقول شوقي:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ: ... إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ

أي: إذا رأيت القلب ينبض فكأنه يُذَكِّرك، فيقول: انتبه مضت ثانية، والثانية الثانية، وهكذا. هذه الثانية لن تعود، فقد اقتربت من النهاية، حصدت لحظة من عمرك، وهكذا. وهذا من أجل أبيات شوقي:

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ قَبل مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِ

وهذا صحيح، والمتنبي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فيقول: ذِكْرُكَ كأنه عمر لك ثانٍ. أي: العمر الْحَسَن. مطلوب منك أن تسعى في حياتك بأعمال جليلة؛ حتى تُذكر بعد موتك، لو زهِدَ أحد بالثناء لزهد إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. أي: اجعل لي ثناء حسناً فيذكرني الناس بالخير ويترحمون علي. لأن الناس شهود الله في أرضه؛ إن أثنوا عليه خيراً فهو خير وإن أثنوا عليه شراً فهو شرير، لأنهم شهود، ألسنة الخلق أقلام الحق، فهنا يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: ... مَا قَاتَهُ. وَفُضُولِ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فالحاجة فقط هي القوت، وما زاد عن كفايتك وحاجتك فهو إشغال يضيع العمر، وذكر الجاحظ في كتابه (الحيوان) أن السلطان السعدي يقول: أوقاتي هي العمر.

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ ... كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

اليوم والليل أفنى الكبير وشيب الصغير الطفل، فليلة ويوم وليلة ويوم وإذا الشباب شيوخ كبار، وإذا الأطفال شباب وإذا الشيوخ في المقابر، ويوم وليلة وإذا الدول تنتهي ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. كم تصبّح هذه الليالي وتصبّح علينا، الشمس تُشرق وتغرب وهي من أعمارنا تنقص.

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَّمَتْ يَوْمَهَا[1] ... أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي

تنتهي ليلة ويأتي يوم جديد، اليوم والليلة جديدان، نموت وتنتهي وهما جديدان.

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا ... وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لا تَنْقَضِي

ما دمت حياً فلك حاجة كل يوم ولك غرض، وللنفس تطلعات وآمال ومطالب.

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ ... وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

أحد الصالحين يقول لصاحبه: ألا تزورنا؟. قال: أُشْغِلنا عن الزيارة. فأخذه مرة وذهب به إلى المقبرة، فقال: انظر، إن هؤلاء ماتوا كلهم ولهم أشغال. لكن عُطِّلت أشغال، أي: ما عندهم سابق إنذار بهذا. ولذلك قال بعضهم:

إِذَا كَانَ رَأْسُ الْمَالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرِسْ ... عَلَيْهِ مِنَ التَّضْيِيعِ فِي غَيْرِ وَاجِبِ

(١) أي: أنهت اليوم.

رأس المال العمر، فإذا كان هذا العمر هو رأس المال، فلا تضيعه في غير واجب، والشافعي -رحمه الله- يقول: رافقت الصوفية فما استفدت منهم إلا قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقيل لرجل: الوقت أغلى من الذهب. فقال: بل الوقت هو الحياة. لأنك في الدقيقة الواحدة قد تصنع شيئاً كثيراً ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. تُقْرَأ في دقيقة، سبحان وبحمده مئة مرة تُقرأ في دقيقة، صفحة من كتاب علم أو معرفة تُقْرأ في دقيقة، كلمة صادقة طيبة ينفع الله بها، تتصل بأخيك المريض تعزيه في دقيقة، هذه الدقيقة تصنع بها مجداً وتبني لك بها تاريخاً، تقدم حسنات تغرس في الجنة شجرات، لكن المشكلة أن الإنسان إذا ما أخذ كلام أهل العلم وأهل الحكمة وأهل الأدب واستفاد به بحال، إنما يحمله فقط كما قال ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. مجلدات ومصنفات على ظهر الدابة لا تستفيد منها، ولذلك ينبغي إعمال ما تسمعه من الحكمة وما تسمعه من الأدب ومن الشعر، حتى يقول:

مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ... وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

فالماضي انتهى عفا الله عما سلف، تلك أمة قد خلت، وأنت مع الماضي هب أنك أغلقت عليه في زنزانة النسيان، والمؤمل غيب: فالذي يأتيك غداً هو ليس في يدك، ولا تستطيع أن تضمنه، ولكن لك هذه الساعة التي أنت فيها، فازرع الخير.

وقد قرأت عن الأديب الشاعر المشهور شكسبير يقول - يوصي صديقه -: يا صديقي، الخير الذي تفعله سوف يُثنى عليك به، والشر الذي تفعله سوف يُدفن معك في قبرك. وأحسن من ذلك قول سيد الخلق ﷺ فيما يُروى عنه لما قال لقيس بن عاصم: «**يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِيناً تُدْفَنُ مَعَهُ وَهُوَ حَيٌّ وَيُدْفَنُ مَعَكَ وَأَنْتَ مَيِّتٌ**». هو العمل.

فمن أراد أن يحسن عمله، فليحسن صرف الوقت فيما ينفع، وفيما يفيد، وفيما يعلي قدره.

وقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». لأن كثيراً من الأصحاء مشغولون وكثيراً ممن يملكون الوقت مرضى، لكن أن يجتمع لك الصحة والفراغ فأمر عَجَب، ولذلك تجد شاباً صحيحاً غير مشغول ولا يعمل خيراً، الآن ترى الشمس تجري لمستقر لها، والريح تتحرك والنسيم يهب والقافلة تسير والليل يطوي النهار وأنت لماذا تقف؟. لا وقوف في العالم ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]. لا وقوف فإما أن تتقدم أو تتأخر، فلن يجديك أن تبقى تفكر، امشِ على نظام ولو على نظام السلحفاة، فإنك سوف تسبق الثعلب الذي وقف.

وقد قيل: الغزال التي وقفت تنظر، هل الفهد يطاردها أو لا، فانقطعت عن السلحفاة وسبقتها السلحفاة. نحن بحاجة إلى إعادة ترتيب لقراءة الأدب، وأدبنا هو أدب الحكمة وأدب المعرفة وأدب الرشد أدب المثل العليا، ليس أدب النقائض الذي يدرسونه في بعض المدارس، قال جرير يهجو الفرزدق وقبيلته وقال الفرزدق يرد عليه، أو داحس والغبراء؛ قالت هذه القبيلة في تلك، تغلب في بكر وبكر في تغلب حتى يورثوا الضغائن بين الأحياء وبين القبائل والعشائر، أدبنا ينطلق من قول حسان رضي الله عنه:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

هَجَوْتَ مُبَرَّأً لا عَيْبَ فِيهِ ... رَسُولُ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ؟! ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

ينطلق مع أبيات الحكمة التي تعلمنا، فكل ما دلَّك على الفضيلة فهو فاضل في نفسه ينبغي الاعتناء به، وكل ما تحاول أن تقترب به من الشر والرذيلة فإنه يُلغي سواء أكان نثرًا أم شعرًا، ولذلك نحن بحاجة لحجر صحي فكري على

أذهـان الجيـل والشباب؛ لئلا يحفظوا بعض اللوثات الفكريـة التي نفث بها بعض المرضـى، فأثرت في أدبنا وجعلتـه كأنه الأدب العربي في بعض ملاحمه، وإنما هـو رذيلة وعـداوة وشر وبغضاء وغدر، وانسلال هذه القبيلـة على الأخرى وإراقة دمـاء وتشويه، فهناك صور مشرقة لا بد مـن أن نُظْهِرَها للناس وأن نحكيها، وأنا أعـرف من القصص الرائقة الأدبية الجميلة ومـن الأبيات التي فيها من المروءة ومـن العزة ومن الأنفة، حتى الأدب الجاهلي تقرأ فيه عن عفة النفس وعن الكرم والسماحة، مثل قول حاتم الطائي:

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ لِجَامِهَا لِتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرَّكَائِبِ

فانظـر إلى هذا؛ يقـول: أنا لا أوثر نفسي على صاحبـي، والله حتى فرسي لا أسابق بها حتى تشرب ماء الحوض قبل أن تأتي الخيول الأخرى. يقول: فليسبقوني هم حتى يشربوا الماء.

وعُـروة بن حزام مرَّ به شخصـ سمين بدين وكان عروة نحيفاً، فضحك منه السمين، فقال:

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بِوَجْهِي شُحُوبَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ شَاهِدُ

يقـول: يأكل معي علـى السفرة أناس، أنا أوزع طعامي علـى الجيران، وأنت تأكل وجبة وحدك، تغلق الباب إذا كنت تأكل.

إِنِّـي امْـرُؤٌ عَافِي إِنَائِـيَ شِرْكَةٌ وَأَنْـتَ امْـرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِـدُ

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَن سَمِنْتَ وَأَن تَرى بِوَجهي شُحوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جاهِدُ

أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

يقـول: أنا عنـدي شركاء فـي الأكل وأستضيـف وآخذ ولذلـك نَحُف جسمي وضعفـت بنيتي، وأنت تأكل وحدك فأنت سميـن فالواجب أن تهزأ بنفسك لا تهزأ

بـي. هذه مُثُـل عُليا، فكيف يوم جاء محمد ﷺ وأقام سَنَن العدل والنور والإيمان، ووصـل بهـا إلى الواحـد الأحد حتى يقول ﷺ: «**مَـنْ كَانَ لَـهُ فَضْـلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَـى مَـنْ لا زَادَ لَهُ، وَمَـنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ**». حتى البسمة جعلها صدقة ﷺ إلى درجة أن زهير يقول في الجاهلية لِهَرِم:

تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ مُتَهَـلِلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّـذِي أَنْتَ سَائِلُه

يقـول: وأنت تطليه شيئاً، فكأنك أنت الـذي تعطيه المال؛ من التهلل ضحوك السن. أما الغضوب والعبوس، فإنه مذموم، حتى قال أحدهم:

وُجُـوهٌ مِـنْ سَـوَادِ الْكِبْـرِ عَابِسَـةٌ ... كَأَنَّمَـا أُوردت غَضْبَـاً إِلَـى الـنَّارِ

هَانُوا عَلَى اللهِ فَاسْتَاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ ... يَـا وَيْحَهُـمْ مِـنْ مَنَاكِيـدٍ وَفُجَّارِ

لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا لاقَيْتَهُمْ عَرَضَاً ... أَهْدَوْكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُتْحِفُ السَّارِي

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فهـؤلاء أهل الرقة أهل الإيمان أهل المبادئ العالية، الذين يحفظون أوقاتهم فيما يقربهم لله عز وجل. فأنت لا تصرف وقتك إلا في حق أو في خير، فالوقت دمار، أو عمار إما لك أو عليك، وسوف تُسأل عن هذا وعن هذا فازرع ما شئت من الخير تجده، وزارع الحنظـل سوف يحصده وسوف يذوقه مراً علقماً يوم العرض الأكبر عنـد الله عز وجل، وهـل أقيمت الصلـوات إلا في الوقت ودُفِعَت الزكـوات وأُعْفِي عن الناس، ونُشِرت المعرفـة وأُطْعِمَ المساكين وأُدِّيت الحقوق وعُولج المرضى إلا في الوقـت؛ لأن الوقت مزرعة، وهـل سُفِكَت الدماء واعتُدِي علـى الحرمات وانتُهِكت المقدسـات إلا في الوقت، فالوقت ظرف زمنـي، لكنه للأبرار جنة وللأشرار نار، فعليك أن توجهه فيما يصلح قلبك، من يوم أن تستفيق في الصباح اعرف أنه يُعد عليك وأنه يُحصى عليك، أقلام تكتب وملائكة تشهد وصحف ترتفع، فتهيأ وتجهَّز للقدوم عليه عز وجل، ودائماً تذكر أن مع دقة القلب دقة الساعة، فدقات الساعة تقول للقلب: لقد أخبرتنا أن صاحبه يمضي في الطريق، وأنه سوف يمضي قريباً.

دَقَّـاتُ قَـلْـبِ الْـمَـرْءِ قَـائِـلَـةٌ لَـهُ: إِنَّ الْـحَـيَـاةَ دَقَـائِـقٌ وَثَـوَانِ

فمـا هي الثوانـي؟ تُؤلف الدقيقة من ثـوانٍ، والساعة من دقائـق، واليوم من ساعـات، والأسبوع من أيـام، والشهر من أسابيع، والسنة مـن أشهر، والعمر من سنوات، حتى نلقى رب الأرض والسماوات.

سئـل أحد الناس: كم عمرك؟ قـال: والله ما أذكر من عمري إلا هذه الساعة فقط. حتى إن أبا الطيب المتنبي يقول:

قَـدْ ذُقْـتُ شِـدَّةَ أَيَّـامِـي وَلَـذَّتَـهَـا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَعْبٍ وَلا عَسَلِ

يقـول: إني ذقت الأيام كلها حلوهـا ومرها، لكن ما في يدي شيء الآن، أتأمل أيـن اللذائذ؟ ولا لذائـذ، أتأمل المصائـب ولا مصائب، أتأمـل النكبات فكأن لا نكبات، ما بقي عندي من آثار العسل وحلاوة الأيام التي مرت، وما بقي عندي من الصعب العلقم الذي مرَّ بي.

كـم مرة مرت بنا أزمات صـارت ذكريات! كم ذقنا من أيـام سعيدة وأفراح ومباهـج الحيـاة ونعمها! لو سُئِلت عنها ما تحسها، وقد لقيت عالماً كبيراً فسألته: مـا تذكر من علمك يـا شيخُ؟ قال: ما أذكر شيئاً، هذه اللحظة التي أنت بين يدي، كأنـي وُلِـدت من جديد والله مرت بي أيام طويلة وجميلة مـا أذكر شيئاً ومرت بنا صعوبـات ما أذكر شيئاً. فقط لك الساعة التي أنـت فيها، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فعلينا أن نمضي هذه الساعة في عمل صالح.

وأنا أرى أن من أراد أن يحفظ وقته فعليه بالتنويع؛ فإنه أدعى لنشاط النفس، فمـرة قراءة ومرة تسبيح ومرة نفع للناس ومرة ترويـح عن النفس، ومرة إيصال الخيـر إلى الآخريـن، عيادة مريض ومواسـاة منكوب وإعطاء فقيـر ومسح رأس يتيـم، طلب معرفة، قراءة كتاب، ركعتان بخشوع، تدبـر، بر والدين وأعمال خير،

هـذه مرزعة الحياة فأين الزارعون؟! هذا بستـان الخيرات فأين الباذرون؟! هذا سلم المجد، فأين الصاعدون، فأين الصاعدون؟! هذه صحف المثل العليا، فأين الكاتبون؟! فيا أيها الناس، هذا وقتكم قُدِّم لكم، لكنه من طريق الشعراء.

وكما أوصـوا بالوقت وأوصوا بالزمن فإن الشعـراء أيضاً شاركوا في صياغة الحكمـة؛ لأنه كما قـال ﷺ: «وَإِنَّ مِـنَ الشِّعْـرِ لَحِكْمَة». فلنأخـذ حِكَمَة الشعراء حكمة الأدب، يقول أبو تمام:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ وَقْفاً فَإِنَّنِي ... رَأَيْتُ كَرِيمَ الْحُرِّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

يقـول فـي محمد بن حميد، الذي قُتِـلَ وَعُمْرُه (٣٢سنة): مـا لك عمر لكنك سجَّلت عمراً طويلاً من المجد؛ لأنه قُتِل في سبيل الله. دائماً عمر الكريم قصير؛ كأنـه ما عاش فـي الناس، يقولون: ليتنا أعطيناه من أعمارنا، يا ليتنا جدنا له من أوقاتنـا، ليته أطـال الإقامة معنا، لكنه ينتهي سريعًا. حتـى إنهم يقولون: ما كأنه عاش بين أظهرنا من عمـره. أما الشديد فطويل عمره، يقولون: متى يقصف الله روحه؟ أثقلنا وأتعبنا وما أطول عمره! نسأل الله الرحمة والعافية.

obeikandl.com

ساعة الصفر

ساعة الصفر عند المعاصرين هي ساعة الموت وساعة النهاية، وهذه الساعة لا بد من أن يمر بها كل واحد، وفي ساعة الموت يضعف القوي ويذعن الجبار ويستسلم المتكبر ويفتقر الغني، والعلماء والحكماء والأدباء والشعراء لهم كلمات في ساعة الصفر؛ لأن زيف النفس انتهى وانتهى الغرور والعجب والكبرياء وانتهى واستسلم، فيقولون الكلمات الصادقة إما بيتاً أو كلمة أو جملة، ولذلك يُروى عن الشافعي أنه لما انطرح للموت وذكر الله، قال:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا- رَبِي- لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ- رَبِي- كان عَفْوُكَ أَعْظَمَا

ثم تُوفِّي بعدما شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وهناك محدث كبير من أجلّ المحدثين من الشمال كان في عهد أحمد بن حنبل اسمه أبو زرعة الرازي، أتوه في سكرات الموت، فأرادوا أن يلقنوه: لا إله إلا الله. فاستحيا منه طلابه فأرادوا أن يذكروا سند الحديث: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**». فما استطاعوا، واستيقظ بعدما كان مغمى عليه أو في غفوة فقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، ثم مات. ومالك بن الريب الذي سجل أروع قصيدة في ساعة الصفر، قصيدة رائعة مؤثرة، أرى أن ليس في الأدب العربي مثلها في مسألة الحنين وصدق العاطفة والوضوح والشفافية في ساعة الموت، بعدما كان من قُطّاع الطريق ويسرق - غفر الله له - ثم تاب وأناب، ومر به عثمان بن عفان رضي الله عنه مجاهداً مع جيشه، فدخل معهم وذهب إلى خراسان مجاهداً في سبيل الله، وفي الطريق لدغته حية فحفروا قبره وألقى قصيدة ما يقارب (٦٠بيتاً) على شفير القبر، قال:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِجَنْبِ الْغَضَى أُزْجِي الْقِلاصَ النَّوَاجِيَا

فَلَيْتَ الغَضَا لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَه ... وَلَيْتَ الغَضَا مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

وَلَيْتَ الغَضَا يَوْمَ ارْتَحَلْنَا تَقَاصَرَتْ ... بِطُولِ الغَضَا حَتَّى أَرَى مَنْ وَرَائِيَا

أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضَّلالَةَ بِالهُدَى ... وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا

فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أَتْرُكُ طَائِعاً ... بَنِيَّ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا

وَأَشْقَرَ مَحْبُوكٍ يَجُرُّ عَنَانَهُ[1] ... إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا

(١) يعني فرسه.

يُقَادُ ذَلِيلاً بَعْدَمَا مَاتَ رَبُّهُ ... يُبَاعُ بِبَخْسٍ بَعْدَمَا كَانَ غَالِيَا

وَلَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِي ... وَحَلَّ بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا

خُذَانِي فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا ... فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا

إلى آخر ما قال، فكلها صدق وكلها تنبيك أن الإنسان يذهب عنه الطلاء وقت الحقيقة، فإذا أصبح في سكرات الموت انتهى كل شيء؛ لأن أكثر لحظة يمر بها الإنسان لحظة ضعف ولحظة صدق هي لحظة سكرات الموت التي سوف نمر بها جميعاً، حتى إن أبا نواس الأديب الشاعر المشهور يقول في سكرات الموت- عسى الله أن ينفعه بذلك-:

إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ

مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

وقالوا في السير والأدب: إن ابن عباس دخل على معاوية رضي الله عنه الملك الخليفة، فلما رآه ابن عباس «وهو في سكرات الموت أراد أن يظهر لابن عباس» أنه ما زال نشيطاً، لأن ابن عباس «ابن عم علي رضي الله عنه غفر الله للجميع ورضي عنهم جميعاً» قال معاوية رضي الله عنه:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

قال ابن عباس «في الحال»:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وهي من القصيدة نفسها، فدل على أن الإنسان قد يتجلد، حتى إن ابن تيمية لما دخلوا عليه قالوا: ماذا أصابك يا أبا العباس؟ وهو في مرض خطير، قال:

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا ... وَلَمْ يَدْرِ عُوَّادُهَا مَا بِهَا

وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةٌ تَشْتَكِي ... أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

هذا على حد قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فهو التجلد والصبر مثل قول النابغة لبني جعدة:

سَقَيْنَاهُمُ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا ... وَلَكِنَّنَا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

يقول: لما تلاقينا، والأعداء قاتلونا وقاتلناهم وسقونا الموت وسقيناهم، وشربنا من كأسهم وشربوا من كأسنا، ولكننا كنا على الموت أصبر منهم. فهو التجلد على تلك الساعة ساعة الصفر وساعة الحقيقة، ولذلك يقول عز وجل عن الأولياء: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: إن كنتم تألمون- أيها الصحابة والمؤمنون- من مقاتلة الكفار فهم يألمون مثلكم، لكنكم تزيدون بأنكم ترجون الثواب والنعيم والجنة وهم لا يرجون شيئاً، وهذا الذي يعزي الناس، ولما حضرت ساعة الصفر في مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ قال تلك القطعة الرائدة الجميلة:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا

الرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إِنْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا ... .

وقُتِل رضي الله عنه وهذه الكلمة أثبتها بفعله، فالشعر يصدق خبر العبد أو يكذبه، وأتى ابن رواحة رضي الله عنه بعده وقال:

أَقْسَمْتُ - يَا نَفْسِي - لَتَنْزِلَنَّه ... أَقْسَمُ النَّاسِ وَأَشَدُّ ظَنَّهْ

مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلاَّ نقطة فِي شَنَّهْ

وقاتل وقُتِلَ ﷺ وقُتِل قبلهم زيد بن حارثة ﷺ ودخلوا ثلاثتهم جنات النعيم على أسرة من ذهب جمعنا الله ﷻ بهم.

ورماح بن حكيم يقولون: إنه قُتِلَ في المعركة، وكان يتمنى الشهادة. حتى إنه يقول قبل الموت:

أَيا رَبِّ لا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ أَتَتْ عَلَى مَضْجَعٍ يَعْلُوه حُسْنُ الْمَطَارِفِ

يقول: أسألك - يا رب - لا تميتني في غرفة النوم على فرش وثيرة ومخدات ووسائد.

وَلَكِنْ شَهِيداً ثَاوِياً فِي عُصَابَةٍ يُصَابُون فِي فَجٍّ مِنَ الأَرْضِ خَائِفِ

إِذَا فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ فَارَقُوا الأَذَى وَسَارُوا إِلَى مَوْعُودِ مَا فِي الصَّحَائِفِ

أي: ما في القرآن مما وعدهم الله ﷻ من الجنة.

وأذكر أن محدثاً كبيراً اسمه: أبو بكر الباغندي. محدث كبير مشهور بعلم الحديث، ومن علامات حسن سيرة العبد أن يحب: حدثنا فلان عن رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ كذا، أو المحدث يقول حدثنا، أخبرنا.

الْعِلْمُ مَا قَالَ فِيه: قَالَ: حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

يقوله بعض السلف، فيقولون: إنه كان في سكرات الموت فسمع شاباً أو طِفلاً يقول: حدثنا فلان. وهو لا يدري أن الباغندي في سكرات الموت، والباغندي حياته كلها حديث، قال: أسندوني. فأسندوه، قال:

سَقَوْنِي وَقَالُوا: لا تُغَنِّ. وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سُقِيتُ لَغَنَّتِ

وهذا الشعر لأحد شعراء العرب يقول: إنهم أسقوه خمراً وطرب، ثم سمع قصيدة وطلبوا منه ألا يرفع صوته، فرفع صوته وعقيرته بالنشيد، فقال:

سَقَوْنِي وَقَالُوا: لا تُغَنِّ. وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سُقِيتُ لَغَنَّتِ

فهنا يقول المحدث: أنتم سمَّعْتُموني شيئاً هزني وحرك مشاعري وشجوني. وهو علم الحديث الذي أفنى فيه عمره، فقام في تلك الساعة وقال هذا البيت المشهور.

وأحد العلماء مرض وفي مرض الموت كان متكئاً ويقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. وهي كلمة الحق وأصدق كلمة في العالم وأحسن كلمة وأجمل كلمة، حتى إني رأيت في بعض الأحاديث يُروى: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ فِي الأَرْضِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ اللهُ فِي السَّمَاءِ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا**». وعند ابن حبان «**قَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي كَلِمَةً أَدْعُوكَ بِهَا...**». وكان موسى عليه السلام جريئاً وشجاعاً وصاحب أسئلة «**قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ النَّاسِ يَقُولُونَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي كِفَّةٍ وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**». فهذا العالم كان يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. فسمع رجلاً آخر يقول: لا إله إلا الله. قال:

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنَى ... فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْبِلادِ وَمَا نَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

يقول: وهذا ذكرني أيضاً وأعانني على ذكره عز وجل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. لأن أعظم شيء في هذه اللحظة هو ذكره عز وجل، وابن تيمية سُئِلَ سؤالاً ذكره تلميذه ابن القيم في (روضة المحبين) قال لابن تيمية: يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. كيف يأمرهم وقت القتال وهو وقت خوف وقلق واضطراب وهم مشغولون ويأمرهم

بذكره ﷻ؟! قال ابن تيمية: لأن المحبين كانوا يتشرفون بذكر محبوبهم وقت الأزمات وفي مصاولة الأعداء، أما سمعت عنترة يقول لمحبوبته:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ ... مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأَنَّهَا ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

فالله ﷻ أمرهم في وقت القتال ومصاولة الأعداء وفي سكرات الموت بذكره ﷻ، فهذا قصده، ولذلك في تلك اللحظة تجد الإنسان إذا تجرد وقرب من لقاء الله ﷻ تجد عنده من الصدق، لا أن يرائي ولا أن يطلب مدح الناس وسمعة الناس؛ لأنه علم أن الحياة منصرمة، وأن الحق قد وصل، وأن الموت قد حصل، ولذلك أحدهم كان يسبح، ثم نظر فقال:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانَاً فَنَنْتَكِسُ

ذكر ابن رجب الحنبلي أن أحد الصالحين كان لا يكف لسانه من ذكر الله، لأنه ﷺ يقول لرجل لما سأله عن عمل يتشبث به قال: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبَاً مِنْ ذِكْرِ اللهِ**». وعند أحمد في المسند «**اذْكُرِ اللهَ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ مَجْنُونٌ**». هذا فيه كلام في السند، لكن الشاهد أن يُتمتم كالموسوس، فقال له أحدهم: أنت مريض؟! قال:

وَمِنْ هِيَامِي بِكُمْ قَالُوا: بِهِ مَرَضٌ ... فَقُلْتُ: لا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

وهذا مثلما ذُكِرَ في سيرة موسى عليه السلام لأنه لما أرسله ربه هو وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون قال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢. أي: لا تتعبا في الذِّكر، وواصلا التسبيح. لأنه يقول تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٤]. فقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾. فدخل موسى يُتمتم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال له أحد الحراس: أمجنون أنت؟

عنـدي دواء المجانين. وهذا ممـا يُذكر في سيرته عليه السلام قال: جئت أعالج مجانين في القصـر لديكم. الطاغية الأكبر الذي طغـى وبغى وأخذه عز وجل، فهذه لحظة الصدق مع الله عز وجل التي قالها الأولياء وصدقوا فيها.

حتـى إنـي رأيت منهـم مثل معاذ رضي الله عنه فـي ساعة الصفر وفـي ساعة الموت يقول: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِغَرْسِ الأَشْجَارِ وَلا لِجَرْيِ الأَنْهَارِ، وَلا لِعِمَارَةِ الدُّورِ والْقُصُورِ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الْكَلامِ كَمَا يُنْتَقَى طِيبُ التَّمْرِ، وَأَنْ أَصُومَ يَوْماً شَدِيدَ الْحَرِّ فِي سَبِيلِكَ، وَأَنْ أَقُومَ الثُّلُثَ الأَخِيرَ مِنَ اللَّيْلِ**». أو كما قال رضي الله عنه.

ويقول حذيفة رضي الله عنه: «مَرْحَباً بِالْمَوْتِ حَبِيبٌ مَنْ جَعَلَه آفَاقَهُ، لا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ». وقال بعض الصالحين في ساعة الصفر في ساعة الموت: اللهم إني كنت أخافك، وأما الآن فأرجوك. فهذه هي اللحظة الحاسمة.

وشوقي يقول في الساعة هذه:

قَـدْ يَضِـيقُ الْـعُـمُـرُ إِلاَّ سَـاعَـةً ... وَتَـضِـيـقُ الأَرْضُـ إِلاَّ مَـوْضِـعَـا

هذا قاله في جبل التوباد الذي يقول فيه المجنون:

أَجْـهَـشْـتُ لِـلـتُّـوبَـادِ حِـيـنَ رَأَيْـتُـهُ ... وَكَـبَّـرْتُ لِـلـرَّحْـمَـنِ حِـيـنَ رَآنِـي

فيقول شوقي:

جَـبَـلَ الـتُّـوبَـادِ حَـيَّـاكَ الْـحَـيَـا ... وَسَـقَـى اللهُ صِـبَـانَـا وَرَعَـى

فِـيكَ نَاغَـيْـنَـا الْـهَـوَى فِـي مَـهْـدِهِ ... وَرَضَـعْـنَـاهُ فَـكُـنْـتَ الْـمُـرْضِـعَـا

هَـذِهِ الـرَّبْـوَةُ كَـانَـتْ مَـلْـعَـباً ... لِـشَـبَـابَـيْـنَـا وَكَـانَـتْ مَـرْتَـعَـا

كَـمْ بَـنَـيْـنَـا فِـي حَـصَـاهُ أَرْبُـعـاً ... فَـانْـثَـنَـيْـنَـا وَمَـحَـوْنَـا الأَرْبُـعَـا

وَكَتَبْنَا فِي نَقَى الرَّمْلِ فَلَمْ تَحْفَظِ الرِّيحُ ولا الرَّمْلُ وَعَى
قَدْ يَضِيقُ الْعُمْرُ إِلاَّ سَاعَةً وتَضِيقُ الأَرْضُ إِلاَّ مَوضِعَا

فهذه ساعة الصفر ينبغي أن تُعِدوا لها بلا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ ، قالوا لأحد الصالحين: ماذا أعددت لها؟. قال: أعددت لها كلمة التوحيد التي لو وُزِنَت بالسماوات والأرض لمالت بهن وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، ساعة الصفر سوف نمر، ونحن في مقياس ينزل بنا درجة درجة، حتى نصل إلى تلك الدرجة الحاسمة التي ينتهي بها العمر، ونبدأ حياة أخرى.

obeikandl.com

الصديق

الصديق مؤنس ومُؤيس؛ لأنه يخفف عنك الأحزان ويعينك على حمل الأثقال، ويساعدك على طاعة الله ﷻ ويدلك على الخير وينصحك ويسددك ويذب عن عرضك، هذا إذا كان صادقاً، أما إذا كانت صداقة مجاملة في الظاهر فهذا ضرره أعظم. وإنما يعنينا الصديق الصادق الصدوق الذي يكون معك في الضراء والسراء، حتى إن الله الواحد الأحد يقول: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وعلي ﷺ يقول: «تَزَوَّدُوا مِنَ الإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عِزٌّ

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي الدُّنْيَا عَرَفْنَا ذَلِكَ فَكَيْفَ فِي الآخِرَةِ؟ قَالَ: يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. فدل على أن الأخ الخليل الصديق المتقي ينفعك حتى في الآخرة، فقد يشفع الصديق الصالح الصادق لصديقه إذا كانوا على أصل من التوحيد والإيمان، وكانوا يحذرون من الصديق المخادع المجامل الذي صداقته للمنفعة المنقطعة الدنيوية. يقول أحد الشعراء:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً ... واحـذرْ صَـديقَـك أَلْـفَ مَـرَّهْ

فَـلَـرُبَّـمَـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـديـقُ ... فَـكَـانَ أَعْـلَـمَ بِـالْـمَـضَـرَّهْ

فهـم يجملون الحياة، فقـد كان بعض الأخيـار إذا رأى إخوانـه قال: مرحباً بالإخوان الذين يُذْهِبُون الأحزان. حتى يقول إيليا أبو ماضي:

أَحْبَابَنَا، مَا أَجْمَلَ الدُّنْيَا بِكُمْ ... لا تَقْبُحُ الدُّنْيَا وَفِيهَا أَنْتُمُ

هـذا إذا كانـوا مُسْعِدِينَ وكان الواحـد منهم موافقاً وكان سهـل الخلق، كما يقول ابن المبارك:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدهرَ فَاصْحَبْ مَاجِداً ... ذا عَـفَـافٍ وَحَـيَـاءٍ وَكَـرَمْ

قَـوْلُـهُ لِـلشَّيْءِ: لا. إِنْ قُلْتَ: لا. ... وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ.

فهذه مدرسة الإخاء؛ أن تكون كثير الموافقة إلا فيما حرَّم الله، سهلاً ميسراً تقبـل الـرأي الآخر تحترم وجهات النظر، تراعي صاحبـك، فلا تكون أنانياً تحب ذاتك أكثر من إخوانك، حتى يقول ابن المبارك:

إِذَا صَـاحَـبْـتَ قَـوْمـاً أَهْـلَ وِدٍّ ... فَكُنْ لَهُمُ كَذي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ

وَلا تَـأْخُـذْ بِـزَلَّـةِ كُـلِّ قَـوْمٍ ... فَتَبْقَى فِي الـزَّمَـانِ بِلا رَفِيقِ

ومن اللطائف أن بعضهم على حديث: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأَنْ أُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي». حتى يقول أبو تمام:

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمُ ... وَتُذْنِبُونَ فَنَأْتِيكُمْ وَنَعْتَذِرُ

فدائماً البادئ بالجميل وساتر عثرات الإخوان والذاب عن أعراضهم هو الموفق في الدنيا والأخرى.

وأبو تمام أيضاً يصف الإخاء فيقول:

إِنْ كِيدَ بَيْنَ إِخَائِنَا فَإِنَّنَا ... نَغْنُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدِ

يقول: إذا تعرضنا إخاؤنا وصداقتنا لهزات، فإنني سوف أثبت، لن أتأثر بكلمات تُنقل عن صديقي أو حسد حساد أو كلام مبغضين.

أَوْ يَخْتَلِفْ مَاءُ الْغَمَامِ فَمَاؤُنَا ... عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا ... دِينٌ أَقَمْنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ

هو يقول: أدب أقمناه مقام الوالد. فبيننا من جسور المحبة ومن نقاط الاتفاق ما الله به عليم.

الشافعي -رحمه الله- اختلف مع صديق له في مسألة، قال: ألا يمكن أن نتفق، أو أن نتحاب أنا وأنت وإن اختلفنا في مسألة أو مسألتين أو ثلاث أو أكثر؟ بلى لأننا نتفق في أمور كثيرة مما نعمل. حتى إن أحدهم تذمر من أخيه؛ لأن بعض الإخوة والأصدقاء إذا كان له عندك حاجة أحبك وتقرب منك وزارك، وإذا انتهى من حاجته طار فلم تره، يقول:

أَأَنْتَ أَخِي إِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ حَاجَةٌ ... فَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَيْقَنْتُ أَلا أَخَا لِيَا

فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ ... وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

يقول في القصيدة ومن أجمل الأبيات:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيا

والناس يصدرون عن عواطف وعن أهواء وعن مواقف مستعجلة ومرتجلة لا عن حكمة، ولذلك فإن الذي مدحه باقٍ وذمه باقٍ هو الله ﷻ إذا أثنى أو أحب ﷻ، أما الناس فهم على حسب المصالح، حتى إن أحدهم يقول:

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ ... وطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبِ

فَلَمْ تُرِنِي الْأَيَّامُ خِلاً تُسِرُّنِي ... مَبَادِيهِ إِلاَّ سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ

وَلا قُلْتُ: أَرْجُوهُ لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ

فهذا بعد تجربة لأن أكثر الناس لا يذكرون، أكثرهم لا يفون بعهد الصداقة وميثاق الشرف والأخوة، وأكثرهم وقت الضوائق لا يأتون ووقت الأزمات ووقت المشكلات إنما هم وقت الرخاء ووقت المصالح والنفع، يثبتونه أو يريدونه حتى يحققوه، ثم يذهبون ولا تجد أحداً.

وفي الصداقة والإخوة الأوفياء يأتون بأبيات طفيل الغنوي التي استشهد بها أبو بكر الصديق ﷺ في سقيفة بني ساعدة لما اجتمع الأنصار يظنون أن الخلافة فيهم، فبيَّن لهم أبو بكر الصديق ﷺ الحق في ذلك وأنصتوا له، ثم شكر الأنصار على مواقفهم الرائعة المجيدة بنصرة الرسول ﷺ وبنصرة الدين، قال: «وَاللهِ - يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ - مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُكُمْ إِلاَّ كَمَا قَالَ طُفَيْلٌ الْغَنَوِي:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَراً حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

هُمُ خَالَطُونَا فِي النُّفُوسِ وَأَلْجَؤُوا ... إِلَى غُرُفَاتِ الْأَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

أَبَوا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَقَالَتْ: هَلُمُّوا الدَّارَ حَتَّى تَبَيَّنُوا ... وَتَنْجَلِيَ الْعَمْيَاءُ عَمَّا تَجَلَّتِ

وَمِن بَعدِما كُنّا لِسَلمَى وَأَهلِها ... قَطِيناً وَمَلَّتنا البِلادُ وَمُلَّتِ

سَنَجزي بِإِحسانِ الأَيادي الَّتي مَضَتْ ... لَها عِندَنا ما كَبَّرَت وَأَهَلَّتِ

فالصديق دائماً تجده يواسي، يريد أن يقع التعب والعتب عليه لا عليك. تجده في خدمتك. حتى إن من أعظم الخدمة خدّمَة الصديق وخدمة الضيف، والرجل لا يأنف من ذلك حتى إن المقنع الكندي يقول:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً ... وَمَا شِيمَةٌ لِي غيرَها تُشْبِهُ الْعَبْدَا

فمن أحسن صفات المؤمن أنه يباشر الضيف ويرحب ويقدم الطعام بنفسه، وهذا أعلى ذوقاً وأعلى ويدل على كرم المعدن وطيب الأصل وعلى ارتفاع الهمة أن تخدم ضيفك، وهذا من الشرف العظيم الذي كانوا يتبارون فيه.

فهذا أمية بن أبي الصلت الثقفي من الطائف نزل على أصدقائه في مكة، فأكرموه وواسوه، جاء الطائف عام قحط وجدب وسنة مجحفة، انقطعت الأمطار فنزل عند أهل مكة فرحبوا به وحيوه وأنزلوه عند آل جدعان؛ لأن خاله عبد الله ابن جدعان الذي يقول هو فيه:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَبَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَبَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمَاً ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

يقول: تُعَرِّض لك بالمسألة فيأتي العون مباشرة ويأتي الإكرام دون تأخير، فهو يمدح أصدقاءه بعدما واسوه، فقال:

لا يَنْكُتُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ ... لِتَطَلُّبِ الأَعْذَارِ بِالْعِيدَانِ

يقول: إذا أتيت تطلب منهم حاجة، قالوا سريعاً: أبشر، تم. لكن البخيل ينكت الأرض بالعيدان يذهب يُخَطِّط ويرسم له خرائط من أجل الأعذار والمخارج

فيقول: تعال غداً. الكريم يُنجز والبخيل يعد، مهما تأته لا تجده، فيقول أبناؤه: خرج؛ مريض. أي: مرض من فاجعة الخبر. فيقول:

لا يَنْكُتُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ ... لِتَطَلُّبِ الأَعْذَارِ بِالْعِيدَانِ

بَلْ يُشْرِقُونَ وُجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا ... عِنْدَ السُّؤَالِ أَحْسَنَ الأَلْوَانِ

وَإِذَا الْغَرِيبُ أَقَامَ وَسْطَ رِحَالِهِمْ ... رَدُّوهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَامِ

يُكرمونه إلى درجة أنهم يعطونه جواري، ويعطونه خيولاً.

وَإِذَا دَعَا الدَّاعِي لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ ... سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ

ووقت الشجاعة إذا دعاهم داعي الحرب يخرجون مع الشمس ويسدون شعاع الشمس بخيولهم، فهذا من الصداقة.

ومن الصداقة والصديق أن أحد المحدِّثين كان يُحَدِّث في خراسان في مجلس حديث، وقد كان للمحدثين مجالس، فمنهم من يبلغ طلابهم عشرة آلاف طالب علم، ومنهم أكثر ومنهم أقل، فنظر ابن الأعرابي وهو محدث لغوي كبير صاحب أدب وبيان، فإذا صديقان في مجلس الحديث يتحدثان، قال لأحدهما: من أين أنت؟ قال: من الأندلس. وقال للآخر: وأنت؟ قال: من خراسان. قال: سبحان الله! ألَّف بين قلوبكم الله، أنت من الأندلس وأنت من خراسان، اكتبوا اكتبُوا. قطع الدرس واستشهد بأبيات؛ لأنه أديب وسريع بديهة وحضره الأدب، فقال:

نَزَلْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمَنِيَّةٍ ... لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ هَجَانِ

وَقَالَتْ وَأَلْقَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا: ... بِأَيَّةِ قَوْمٍ أَمَّنِي الرَّجُلانِ

فَقُلْتُ لَهَا: أَمَّا تَمِيمٌ فَأُسْرَتِي ... فُدِيتِ وَأَمَّا صَاحِبِي فَيَمَانِي

رَفِيقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدِّينُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّتَّى فَيَجْتَمِعَانِ

وهذا من أحسن الأبيات، فيقول: الإسلام ألف بيننا وجمعنا. ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

كان ﷺ محمد القرشي الهاشمي يجلس مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، كلهم تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. فابن الأعرابي استشهد بهذه الأبيات.

وفي مجالس الحديث التي كان يحضرها كثير من طلاب العلم، حتى يقول أحد المحدثين، وكان شاعراً:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشَتْنِي أَلْفُ مَحْبَرَةٍ ... يَكْتُبْنَ: حَدِّثْنِي طَوْرًا وَأَخْبِرْنِي

يقول: إذا اجتمعت علي ألف محبرة وألف طالب علم يحملون المحابر، وأصبحت قريبة مني واجتمعوا مرة يكتبون: حدثني فلان وأخبرني.

نَادَيْتُ فِي النَّاسِ وَالْأَقْلَامُ حَافِلَةٌ ... تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ

هذا نص بيت لأمية بن أبي الصلت يقول:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

فالصداقة تبنى على المصارحة وعلى المحبة وهي على المشاكلة، يقول ﷺ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». ولذلك إذا تحاب إنسانان فإنهما من قرب روح هذا من هذا، وبعضهم وإن كان صادقاً، لكنك لا ترتاح له، فابحث لك عن صديق ورفيق ترتاح له، طبائعه تقارب طبائعك؛ إذ يمكن أن تكون فيك دعابة وخفة دم وتحب النكتة وطيب القلب فيوافقك في هذه الصفات، لكن يأتيك رجل زميت ومتشدد في أخلاقه قاسٍ لا يصلح لك، ولكن يصلح مع رجل آخر مثله، وفي الصالحين من هو صارم حازم في أموره، وهذا ما يُعطل المصالحة معه من جانب.

الإسلام يتسع للجميع، بشرط أن يكون على المنهج الصحيح منهج الرسول ﷺ، فيتسع الإسلام للرجل القريب السهل المزوج خفيف الظل، ويتسع الإسلام للتاجر الكبير الذي له أموال طائلة يؤدي حق الله، ويتسع للفقير الذي لا ينام إلا على الرصيف، ويتسع الإسلام للعالم الكبير الرباني وللمتعلم أو العامي، وللمجاهد وللزاهد وللعابد وللأمير وللوزير وللمنفق وللشاب، وللمرأة وللفيلسوف وللكاتب وللصحفي، هذا دين عظيم دين عالمي يتسع للجميع ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. يقول: أنتم مواهب واستعدادات لكن ابنوا، كلكم تؤسسون في حضارة الإسلام وسوف تصلون ما دام قصدكم الحق، ولكن قصدي من ذلك تذمُّر وتفلت الأصدقاء واختلاف بعض الأصحاب. ولا يجمع الناسَ شيءٌ كالإيمان بالله ﷻ والعمل بكتابه وبسنة نبيه ﷺ حتى يكونوا على كلمة سواء.